Cat. Upd. 1950

Replacement

892.78
Sh544tA

فؤاد الشابث

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
892.78
Sh544tA
c.1

تاريخ جرح

69111

Cat. April 1950

Replacement

منشورات ـ دار المكشوف ـ

طبع من هذا الكتاب
الفا نسخة على ورق جيد .

الطبعة الاولى ، ١٩٤٤
جميع الحقوق محفوظة

كلمة المؤلف

هذه صور ، ما كنت ارجو لها الظهور مجتمعة بين دفتي كتاب . فهي وليدة ظروف زمنية واحوال نفسية لا تجمعها جامعة ولا تربطها قرابة . ولي رأي في النشر احاول جاهداً ان التزمه واعمل به ، وهو ان ما لا تجمعه فكرة واحدة ونفس متواصل غير متقطع ، لا يصح ان يكون سبب اجتماعه دفتا كتاب . . .

ومنذ قنعت بضرورة نشر مجموعة قصصية ، ولعل للقصص شأناً خاصاً في ادبنا الناشىء ، وانا افكر كيف انسخ هذه القطع عن مخطوطاتها ، واعدها للمطبعة ، حتى اتيح لي من الصبر والجلد ، في ساعات الصفاء والحماسة ، ما مكنني من الانكباب على النسخ ، والنفس تذوق الموت . فقد كان اكره ما اكرهه في هذه الحرفة ، حرفة الادب ، ان اعود الى ما

كتبت مرة ثانية ، عودة تذكرني بجمل يجترّ ، او بطفل يأكل من قيئه.

والسبب في هذا التباطؤ ليس ما ذكرت من كلل الهمة ، وقرف الاجترار فحسب . بل ان ثمة سبباً لا بد من الاشارة اليه وايضاحه بدون لبس ، وهو انني لا اود ان ازج نفسي في انشاء أدب « القصة الصغيرة » وأدب « المقالة » مدشناً عهد النشر بالنوع القصير النفَس ، الصغير الحجم ، خوفاً من ان يجري ذلك علي عادة لا اجد بالتالي منها مفلتاً ، فاذعن لها صاغراً .

وعادة التأليف بالنفَس القصير من العادات المشؤومة باغرائها ، ولين جانبها ، وسهولة مأخذها ، وسطحية تفكيرها على الغالب ، ثم باقبال القراء عليها ، واستزادتهم منها . وما هذه كلها إلا قيود او قل مغريات تجعل تلك العادة الانشائية من « التقاليد الادبية » الفاسدة ، المتحكمة برقاب المؤلفين ، على الاخص في فترة طغت فيها سنّة الرواج على مبدأ الفائدة الفكرية . ولقد طالما نعيت على اديب مصر الكبير الاستاذ العقاد ، انصرافه الى ادب « المقالة » انصرافاً مهلكاً ، كاد يصرف معه نضارة عمره ، وزهرة ذكائه ، حتى انقذ نفسه في الاعوام الاخيرة ، فقام ينفض الكتاب اثر الكتاب ، متحرراً لحسن حظه وحظ قرائه ، من تقاليد أدب المقالة التي يعد ،

هو ، من اكبر مخترعيها ، ومضللي الناشئة بحبها . كذا فعل شوقي في اخريات ايامه ، وما ابقى ما فعل !

انا لا انكر ان ادب النفس القصير ، ليس تعبيراً عن هوى الكتّاب وارادتهم ولا سيما من نبهوا ونضجوا . انما هو أدب خلقته الصحافة اليومية المتأدبة ، بقضاء الضرورة وحكم الحاجة ، يوم لا مطابع كبرى ولا دور نشر ولا امكانيات فردية للقيام بالمشاريع الفكرية الجدية . ومع ذلك فانني شديد الحرص على ان يكافح الادباء ، جهد الطاقة ، ذاك النوع من الاستغزال الادبي ، ليخرجوا من كفاحهم ظافرين بخلق ادب رفيع ، عميق ، طويل الجلد ، يزري بمشاغل الصحافة وحاجاتها [١] ، وتصان معه كرامة المفكرين وتسمو به اقدارهم . وهو ما نستبشر ببزوغ فجره في مصر اخيراً ، بعد ان توافرت لها من مطابعها ، ودور نشرها ، ولجان تأليفها وطول مراسها في حقول التجربة ، سبل السمو فوق النشر اليومي القصير النفس والعمر ، واسباب الجد والحزم في انتاج التفكير والمعرفة .

١ عندما توجت مؤسسة « نوبل » كتاب روجيه مارتان دوغار « صيف عام ١٩١٤ » بالجائزة الكبرى ، زحف الصحفيون الى المؤلف المعروف بعميق صمته ووفرة انتاجه ، ليتحدثوا اليه بشؤون الادب ، فقال لهم : « عن الادب ... لا تكلموني . اصنعوا منه ... ارجوكم ... »

هذه قصص ، ليست كلها من مواليد هذه الايام . بل ان اكثرها جرى في روعي ، وحياتي ، ونحت قلمي بين اعوام ١٩٣٠ و ١٩٤٠ . وليس الا « العانس » و « ربيع يتضور » و« المعركة » من نتاج الاعوام الثلاثة الاخيرة . ومن هذه القصص كلها ، قديمها وحديثها ، ما كُتب مرتين في حقبتين متباعدتين ، كأن تمر الحادثة او الفكرة في باريس مثلا عام ١٩٣٣ فتُضرب حامية على الفور ثم تضرب مرة ثانية عام ١٩٣٧ وهكذا .

فان كنت احاول اليوم ان « اصنع فناً » في روايتين كبيرتين اعدهما ، واسير بهما وارجو ان يتاح لي انجازهما قريباً ، فانني فيما يطالع القارىء من قصص ، حتى المكتوبة مرتين كما أسلفت ، لم اجترح اية محاولة في اصطناع فن . ولا يبعد ان يكون ذلك من محاسنها ومساوئها معاً : ان هذه القصص ، كما يقول الكاتب الفرنسي « آبيل بونار » في بعض اثاره ، انما هي من عمل تلك الساعات التي يشعر فيها المرء بالحاجة القصوى الى ارضاء نفسه فحسب .

على انني وقد وضعت هذه القصص لارضي نفسي ، وما أشق سخرة ارضاء النفس ذات الاهواء ، فلي ان اسأل : هل ارضيتها ؟

سؤال خطر لي وانا انسخها عن مخطوطاتها . وسرعان ما اتى الجواب : لا !

اني لاذكر حين كنت افرغ من احداها انني ضمنتها من نفسي كل ما احب وما ابغض . فكم هي اليوم ، في نظري ، اصغر واضيق من ان تتضمن شيئاً ! كأني الطفل يقضي لبلته مع الدمى حتى اذا اصبح ملها واجتواها . وقد اصاب الروائي فرنسيس كاركو الهدف اذ قال متحدثاً عن شعوره كمؤلف : « انني كلوحة تفتش عن اطار لها . » أولست كذلك ؟ بلى ! هو الامر بعينه . ولكنني خرجت من تلك الأُطر التي صنعتها ذات يوم لاحيط بها صورتي ، ورحت افتش عن اكبر . . . واجمل . ويخيل الي انني سأظل دائباً افتش حتى اظفر بالاطار الاخير ، او يظفر بي اطاري الاخير !

أليس في « التفتيش عن الاطار المفقود » كل تلخيص القانون الادبي الخالد ؟

فاي عبث ! وكم معجزة في هذا العبث !

دمشق ، تموز ١٩٤٤ **فؤاد الشايب**

الشرق شرق

من وحي باريس

وقف حائراً في مفرق الطرق لا يعرف كيف يتجه . امامه الطريق التي تؤدي الى الشارع العريض . ووراءه الطريق الفرعية التي يطل منها بناء « الاوديون » . وعن يمينه المنفذ الوحيد الذي يكاد يبين المطعم على منحناه . وعن يساره الزقاق الضيق الذي اعتاد ان يتسرب اليه احياناً ، فريداً ، واضعاً يديه في جيبيه او داخلاً احدى المكاتب . هو الزقاق الحزين كنفسه الضالة .

وقف حائراً لا يدري كيف يتجه ، مع انه عندما هبط سلم الفندق كان يعرف لماذا يخرج في هذه الظهيرة وما قصده ! ان رغبات وخواطر تزاحمت في رأسه ، وافسدت عليه صفاء اختياره . وبدا في لحظة ما ، مذهولاً ، مسروراً ، ضائعاً بين الف نداء ونداء ، منذ صافحت وجهه شمس النهار . وكان كل صوت يناديه الى اللذة والمتعة والحياة . لقد فكر ان يصل الى « الاوديون »

فيستشير لوحات الاروقة عن المسرحية التي ستعرض هذه الليلة . على ان الكتب ، في واجهة المكتبة القريبة ، كانت تناديه وتغمزه وتشير اليه . وهو وان يكن جائعاً ، ونسي جوعه ، فلا يزال ينظر صوب المطعم . ولكن ماذا يشتهي بالفعل ؟ فاطرق وحاول ان يعرف ماذا يريد ! لعله كان يتمنى لو ترافقه فتاة شقراء ، في هذه الظهيرة الفاترة من نهار خريفي شمسي قلما تجود بمثله ايام باريس ، فيتأبطها ، ويغشى معها حديقة « اللوكسمبور » ويلهو بضع ساعات برمي فتات الخبز الى عصافير الدوري الاليفة ، تهبط جماعات جماعات على مقاعد المتنزهين . فيبتسم لهذه الرؤى الشهية اليانعة ، ويلتفت نحو الواجهة حيث يخيل اليه ان صوتاً يأتيه منها قائلا : تعال . . . تعال . . . ألم تعدني البارحة بأن تأخذني اليوم ؟ ألم تعدني بدفع ثمني ، واعتاقي من هذه الواجهة الباردة ، لأعيش في جيبك او على رف الموقد في غرفتك ؟ ويبتسم الشاب ثانية ، كأنه يعتذر ثم يحاول أن ينقل خطاه ، فيتردد ثم يلبث في مكانه .

وفجأة مرت سيارة تاكسي ، فخففت السير في المفرق ، ومد السائق رأسه ويده ، وصاح بالفتى الواقف : هيه . . . ايتها البقرة الشرقية . . . اما انتهيت من احلامك ؟ فذعر الفتى وانتفض ،

واجتازته السيارة وهو يسمع قهقهة سائقها ، وما لبث هو نفسه ان ضحك وقال لنفسه : صحيح . . . انا بقرة ! . . يخيل الي انه عرفني من منظري وسحنتي ، واختياري هذا المكان للوقوف ، كأنني بقرة جائعة في مرج اخضر ، تجتر وترسل في الفضاء نظرات واسعات حالمات . ثم اختار طريقه صوب المطعم .

كان اخوانه في المطعم ينتظرونه كل يوم . وكان يخجل ان يغشى الاماكن العامة وحده . فان هذه الحياة الجديدة تبهره وتربكه ، فكان انسه عظيماً بابناء البلاد ، من رفاقه الطلاب ، عندما يشاهدهم كتلة واحدة ، في الجامعة ، او المقهى ، او المطعم ، يشكلون دائرة عربية ، ذات لسان عربي ، وطابع عربي . فسرعان ما انضم اليهم .

كانوا ثلاثة ، دعا كل منهم رفيقة له الى طعام الغداء ، فقدموهن الى الفتى الذي ازداد ارتباكه في هذه الحلقة الصاخبة . وما ان شعرت الاوانس ببطء حركات الشاب ، حتى رحن يتحرشن به ، ويطرحن عليه السؤال اثر السؤال . ولم يكن الضيف الجديد بالقبيح البليد ، ولكنه شعر انه اقبح الوجوه ، وابلد العقول . قال احد رفاقه وهو يكبت ضحكة : يا اوانس ! . . ان رفيقنا من ابناء العوائل العربية

النبيلة ، واحد الشباب النابغين .

فقفزت احداهن بالجواب : لا فائدة يا صديقي من التعريف . فالنبوغ مشهود في عينيه . وضحك الجميع دفعة واحدة ، بينما كانت تتقدم من المائدة فتاة مليحة تتأبط كتباً ، فتحي الجميع بلا كلفة ، ويرحب بها الرفاق بعد ان تصافحهم واحداً اثر واحد . قال احدهم : الا تأكلين ؟

ـ لا .

ـ حسناً تفعلين . الا تشربين كأساً ؟

ـ لا . . . اشكرك .

ـ أحسن . . .

قال آخر : ولكنك اذا جلست على الاقل ، قدمنا لك احسن الشباب ، صديقنا الجديد . وعندما نظرت الفتاة الى الشاب نظرة ممعنة قالوا لها : هو احمد . فابتسمت ونهض لها فصافحها . ثم اتخذت مقعداً لها حول المائدة ، الى جانب احمد ، بادية السرور تحتفي بالمعرفة الجديدة ، وعادت الحلقة الى اللغط والمزاح .

كانت « لوسي » ثالثة الفتيات اللواتي عرفهن منذ هبط باريس . فلم تكن الاولى شقراء تماماً ، وكانت الثانية شقراء ، ولكنها ثرثارة ، تضحك لاتفه الاسباب . وهو ، وان لم يكن بامكانه

ان يحدد على الضبط صورة الجمال الذي يحن اليه ، فقد كان يشعر بهذه الصورة شعوراً خفياً . لقد صادف الكثيرات في الحي اللاتيني ممن استهوين قلبه ، وقربن من صورة خياله ، مرافقاً او مراقصاً او مشاهداً ، فلم يكنّ له الا خمس دقائق ، او اقل ، او اكثر ، كما تكون الظلال لجهة من الجهات ، في فترة من فترات النهار ، او كما تكون سيارة التاكسي للراكبين . وكانت « لوسي » ثالثة الفتيات اللواتي عرفهن معرفة مكالمة ، ومجالسه ، وألفة ، فعجب من نفسه كيف يحدثها بطلاقة ، وعجب منها كيف تصغي له . لقد ردت عليه ثقته بنفسه .

لقد احب « لوسي » بل انه يشعر باستعداده لحبها . انها شيء من خياله ، شقراء ، مهذبة ، لا تسخر من وحشته ، ولا تقطع عليه سبيل تأملاته . ان فمها واسع ، ولكن ابتسامتها ساحرة ، واسنانها بيضاء ناصعة ، كأنها اذ تضحك ، تضحك كل سن في فمها وتتلألأ بشراً وانساً . ثم لماذا يغالي في الانتقاء والانتقاد ؟ لقد قضى زمناً بالحرمان المطلق ، وهو يحاول عبثاً الاتصال بامرأة . ولقد كان بامكانه ان يصوم عاماً وعامين في دمشق . اما في باريس فلا سبيل الى ذلك ، والعالم متفق فيها على ان يعيش ازواجاً واعشاشاً . عجيب امر هذه المدينة ! ان الناس يعانق

بعضهم بعضاً ، في كل مكان تحت ، الشمس وتحت انف الشرطي ، في الفندق ، وفي الصف ، وفي الكنيسة ، وكيفما كان ، وانى اتفق ، بلا حرج ولا حذر ، وقوفاً ، جلوساً ، صباحاً مساء ظهراً ، قبل الاكل ، بعد الاكل ، قبل النوم وعلى الريق . والمرأة في كل مكان يقع عليه نظره . فصاحبة الفندق امرأة ، والمديرة ، والخادمات . والمرأة في المخزن الذي يبتاع منه منديله ، والدكان التي يأخذ منها تبغه . في المقهى ، والمطعم ، والمدرسة ، في السيارة ، والترام ، والمترو ، تبيع الجرائد ، وتكنس الشارع ، وتجر العربات في سوق الفواكه والخضار . فاذا كان الفتى دقيقاً ، حساساً في ملاحظة المرأة ، والعجب من شأنها ، فلأن عينيه ما تعودتا من قبل ، مثل هذا الذيوع والانتشار . وانه ليخيل اليه مراراً ان المرأة ، وهي تحت متناول اليد ، ملك مشاع كالهواء والماء ، ثم لا يلبث ان يدرك حقيقة قاسية . وهي ان المرأة نفسها تختار قبل الرجل ، لا سيما اذا كان حيياً في اساليب تقديم نفسه . ثم كم كانت خيبته اليمة منذ ليلتين عندما سمع امرأة تعترض طريقه لتقول له : تعال يا غرامي . . . الا تضمني ذراعاك يا حبيبي ! فادرك انها دجاجة ، بائعة لذة ، وذكر ان سواها يعز عليه ويمتنع دونه ، فثارت فيه انفته وفر هارباً .

لقد تعذب وتوجع وشعر بمرارة الوحدة ، ووحشة الغربة .

وخيل اليه انه ناكص راجع الى بلاده على ظهر اول سفينة ، والا فكيف يعيش في جنة كل اشجارها محرم ، فلا يُقدَّمُ له منها سوى الثمار الساقطة ؟

وهنا تبرز لوسي في حياته ، وتطل من افق يأسه القاتم ، فتشرق في دنياه اشراقة شمس باريس بعد احتجاب طويل ، وها هو يتأبطها بشوق وخفة في حديقة « اللوكسمبور » عائشاً حلماً من احلامه الجميلة.

انها شقراء كشمس الاصيل ، خفيفة كاغصان الصفصاف ، مرحة ضاحكة كالبحيرة ، مؤنسة مسلية كاعز الكتب . وكان يشعر الى جانبها انه ينشد ويغني ، وانها الانشودة التي ينطق بها والصوت الذي يند عن جوارحه المشتاقة . وكان كلما ودعها مساء او ظهراً ، على ان تلقاه في يوم ما ، هرع الى غرفة احد مواطنيه القدماء يطلعه على تفاصيل ما جرى له مع لوسي ، مسترشداً طالباً نصيحة ، وكان رفيقه يقول له : لا تكن جباناً يا احمد . جرّب ان تدخلها غرفتك . فغالباً ما تكون المرأة قد اذعنت . . . عندما ترضى الخلوة في غرفة رجلها.

وكان احمد يقول لنفسه : فيمَ التسرع ، وما معناه ؟ وكيف يدعوها الى غرفته كما تدعو العناكب الذباب ؟ ولماذ ينقض على الجمال انقضاضاً كأنه يفترس او يغتال ؟ ولماذا لا ينعم بالنعمة رويداً وعلى مهل ؟ وهل يحسن بالانسان ، عندما يتلمظ الجمال ،

ان يزدرده ويبتلعه دون ان يستمرىء لذة طعمه ؟ ولماذا يلتهمه كالثعابين ، وبامكانه ان ينقر فيه نقراً خفيفاً كالعصافير ؟

واعجبت لوسي باحمد حقاً . على انها ما كانت تلفظ كلمات الحب . وكانت تصغي الى احاديثه في الحقوق والادب كأنها تسمع لتلميذ مجتهد تبدو عليه بوادر الذكاء . ولقد كان من سر افتتانها به ، ما عرف عنه ، وما هو عليه من حياء وخجل ، كأن عينيه اللتين لا تحدقان الا لتنكسا الطرف ، كل ما فتن المرأة بالرجل الطازج ، الحيي ، المفعم حباً ، المشتعل تفكيراً . ولقد اشتاقت ذراع هذا الرجل الحالم الوادع كما يشتاق المكدود باعاً من الارض يرتمي عليه ليستريح وينام . لذلك كانت له كما كان لها قطرة في جدب ، وهدياً في تيه من يأس . ولذلك ايضاً كانت فترة التعارف القصيرة منطلقاً مباشراً نحو العهد السعيد . فلماذا يسأله الرفاق كلما رأوه : ماذا فعلت يا احمد ؟ وهل وصلت لوسي الى الغرفة ؟ انه ليضطرب ويشمئز ، ويحاول تجنب الرفاق وهزائهم . فهو لا يرى في لوسي حتى الآن سوى عينين زرقاوين ، صافيتين مخلوقتين ، على صورة خياله ومثال وهمه وتصوره . وحسبه من كل ما في لوسي من فتنة وجمال انه يستدفىء مطمئناً في كنفها ، ويستحم ناعماً في بعض ما

يفيض حولها من نفسها الكريمة فيلوذ بها صاغراً ، بكل ما في القوة من حنان ، اذا لاذت واطمأنت .

قال احمد مخاطباً لوسي ذات اصيل بلهجة من اكتشف كنزاً : لوسي . . . سنقضي هذه الليلة في مسرح الاوديون . . .

قالت وهي تتأمل فرحة العينين الطفلتين في جبين الرجل : ماذا في الاوديون يا احمد ! اجاب منتصراً : مسرحية « تريستان وايزو » انبل غرام عرفه الكون واعنفه ، انبل وابلغ من روميو وجوليات .

قالت وهي تهمهم : لا بأس . ولكني لا احب مشاهدة هذا النوع من الغرام البائس والفناء الاسود .

انها تصارحه وتجابهه بحقائق باردة لاول مرة فتقول : ن نفسي لتجيش اذ اشاهد مثل هذه المسرحيات ، كأنني آكل بقلاوة عربية ، حادة الحلاوة ، او اشرب قهوة شرقية ثخينة دسمة نزجة ! احمد . . . اطلب عفوك . هل سمعت بجريمة وعقاب ؟

اجاب الفتى راضخاً : كيف لا ؟ لقد قرأت دوستويفسكي واحببته . انه مصور بارع لاضطراب جيل شقي ، ووساوس ارواح غير عادية !

قالت : اذن سنشاهد هذه الليلة مسرحية « جريمة وعقاب »

على مسرح مونبارناس .

وقالت لوسي ، وهما يشهدان مسرحية دوستويفسكي ، وبينما تشد على يديه بيدها : احمد . . . ان تمثل دور البطل « راسكولنيكوف » ، يكاد يجن ! . .

ـ لماذا ؟

ـ لان استمراره عاماً كاملاً على تمثيل هذا الدور المملوء عنفاً واضطراباً قد هتك اعصابه ، وقطع اوتارها . الا ترى الى وجهه الموتور كيف يغدو شيطانياً رهيباً كلما مثل ازمة شعور واختناق عاطفة ؟ لقد غدا بنفسه راسكولنيكوف ؟

ثم قالت بعد فترة سكون : الا تعتقد ان الحياة التي يحياها الانسان لا تلبث مع الايام ان تفرض عليه نفسها وذوقها ولو تعارضت مع نفسه وذوقه ؟

قال بعد سكوت : لا ادري . . . ربما !

كانت لوسي تلك الليلة ، مضطربة ، حادة المزاج ، فلم ترفض دعوة احمد لها الى غرفته . كانت المرة الاولى . لقد مشت الى جانبه لصيقة به ، تضغط على ساعده باصابعها . وكانت اسنانها تصطك برداً ، وتدخل نفسها فيه كأنها تحب ان تستنشق من جسده رائحة الرجل والدفء . وقبل ان يصلا الى

الفندق خاطبته قائلة : الا تجلب معك من هذا المسكر القوي الذي تسمونه بلغتكم « عرق » ؟ انني احب هـذا العنف في مسكركم . انه دواء للصداع والبرد والهستيريا .

ـ وهل خرجت بنفسية راسكولنيكوف !

ـ هم ! . . هيه ! . . ثم صمتت !

وفي الغرفة عندما تلاشت على السرير العريض ، ظن احمد انها تعطي نفسها وتدعوه اليها . على انه عندمـا اقترب منهـا رآها مغمضة الجفنين لا تبدي حراكاً كأنها تنام . فلبث يتأمل دون حراك هـذا الوجـه الساكن المطمئن لجو غرفته وبسطة جناحه ، فرعش في ضميره فرح خفيف ، وهو يرى لوسي بين يديه وتحت متناول شفتيه . انه يملكها . وعلى وجهها الراكد الهادىء صك هذه الملكية توقعه ابتسامة رقيقة .

اياخذها بين ذراعيه ؟ يا الله انها تنام . ايصرها بكفيه ؟ يا الله انها سريعة العطب . اينفجر عليها كالجحيم ؟ يا الله مـا ابرأ هـذه الوردة النـاعمة تحلم بامـان . فكيف يجوز له ان يزعجها ، وربما لا يخطر لها في بال ، او يجول منها في رغبة ؟ او يسوغ لك يا احمد ، ان تنقض عليهـا كوحش وتأخذهـا كغول ، وقد لجأت اليك ، وامنت في فراشك ؟ لا ! لا !

ثم اخذ عباء من المشجب فارخاه على جسدها بحذر . لكن لوسي استفاقت من ذهولها او من نومها وتطلعت بعينين ناعستين نحو الرجل ، حارس هذه الضجعة الذاهلة ، ثم ما لبثت ان قفزت الى الارض وقالت : عفوك يا احمد . لقد سهوت . انا ذاهبة . ودون ان تنتظر جواباً اختطفت قبعتها ، وفتحت الباب وخرجت وهي تردد : سأخطىء الميترو . الى اللقاء . تاركة فتاها مسمراً في ارضه ، لا يفقه شيئاً مما يجري . لقد كان بوده ان يرافقها في الميترو حتى بيتها ، ولكنه فطن الى ذلك بعد ربع ساعة . فحزن ونام .

في مساء اليوم الثاني ، فاجأته على غير موعد ودخلت غرفته بينما كان يهيء دروسه . فدهش للمفاجأة ، وحاول ان يسألها عن سبب انهزامها مسرعة ليلة امس ، او يعتذر لها عن نسيانه اللحاق بها لمرافقتها . ولكنها كانت ضاحكة ، مستبشرة ، كأن لا خاطر يزعجها ، ولا فكرة تحملها عن اليوم الغابر ، فلم تدع مجالا للسؤال والاعتذار . وتناولت العشاء معه .

انه تطور جديد في حياة الحبيبين . فها هي لوسي تزوره كل يوم بلا موعد . وتدخل عليه بلا كلفة بعد تلك الليلة . وها هو ينطلق في احاديثه معها فيقص لها سيراً شرقية ،

اطارها الصحراء ، وقوافل الجمال ، والقمر ، والزهر ، والعطر والنسيم ، ولو لم يكن يعرف عن هذه الحياة شيئاً . وظل جسد لوسي ذاك الشيء الذي يحاذر لمسه ، ويتورع عن التفكير به لنفسه .

في الليلة الرابعة ، كان مطلع حديثه لها : لماذا لا تحبين البقلاوة العربية يا لوسي ؟ اصحيح انها ثقيلة تجيش لها النفس ، وتختبط الاحشاء ؟ غريب ! فضحكت الفتاة فخال الفتى ضحكتها تعبيراً جميلاً لوقع سؤاله من نفسها . على انه لم يكن يسمع صرير اسنانها ويرى انقباض عضلات فكيها . وعندما صمتت وانحنت على المائدة آخذة ذقنها بين كفيها قال لها : ماذا اصابك ؟ اجابت : انا مريضة . فاضطربت حركته وقال مستعجلاً : أأجلب لك حبة اسبرين ؟ فشكرته . ثم قامت لتتصرف فرافقها في الميترو .

في الليلة الخامسة اهدى اليها احمد صورته ، وقدمها بكلمات جميلات ظلت لوسي ترددها معجبة بها كل الاعجاب ، لانها شيء من الشعر الذي تحبه مرغمة . واطلعها على مجموعة من صوره وصور دمشق وصور ابيه وامه واخوته والعائلة . لقد كان يشعر بضرورة ايجاد « الجديد » بينه وبينها مهما يكن تافهاً وكان يرتبك

اذا عز عليه الشيء ، واحس بشفتها السفلى تلتوي غير مكتفية .

في الليلة السادسة ، افضى الحديث عن الشرق الى فوائد الختان وضرورة تطبيق هذه العملية في سبيل الصحة . فسألت لوسي : وانت اهميد . . . هل انت مختون ؟ فقهقه كأن السؤال راح يدغدغه تحت ابطه واجاب : كيف لا ؟ ثم اطرق خجلاً . ولبثت هي تتأمله باستغراب .

وكانت الليلة السابعة فريدة في حياته كلها . لقد راقص لوسي حتى الفجر ، ولاول مرة يقبلها طويلاً . فطوقها بذراعه ومشى معها حتى البيت في بكرة الصباح الباريسي الازرق الجميل . كان يظن انه تزود منها ما يكفيه دهراً . ولكنه ما لبث ان اشتاقها منذ طلعت شمس النهار نفسه .

في الليلة العاشرة ، احضر الفتى زجاجة من « البورتو » الفاخر على المائدة ولبث ينتظر . وعندما دخلت ، صاحت وهي تغالي في ابداء دهشتها : اوه ! على شرف من سنشرب هذه الليلة ؟ اجاب بلا تردد : على شرف حبنا . فهمهمت الفتاة بقليل من السخرية المحببة وقالت : هذا كثير . . . ورسمي جداً . الا ترى كذلك ؟ فاطرق هو واردفت تقول : الا ترى يا اهميد اننا يجب ان نشرب نخب الشرق والقوافل والليل

والقمر ؟ ثم رفعت كأسها الحمراء بين اصابعها الرقيقات وظلت تحدق فيها ريثاً ، بينما تدغدغها خيوط النور ، وجرعتها دفعة واحدة . ثم انطلقت تضحك كأن الخمر ما كادت تلامس احشاءها حتى صعدت الى رأسها . وبدت تلك الليلة ضاحكة ساخرة ، قوية ، شرسة ايضاً . وكانت كلما استطارت شرراً او عنفاً ، لان احمد ، وهدأ حتى يكاد يميع ويذوب .

لقد صعد الدم الى وجنتيها فغارتا فوراناً . والى اذنيها فغدتا كورقتي وردة بين اشراقة خفيفة من الشعر الاشقر . اما فمها فكأنه رُسم من جديد ليطلب الخمر ويشتهيها . واما عيناها فقد صارت عليها غشاوة مبتلة ، واتضحت الزرقة بها كأن النشوة قد صقلتها صقلاً . وكانت تضحك لكل ما يقوله احمد ، وتجد لذة في ان تكرر : لا اصدق . فاذا اكد واقسم انفجرت ضحكاً . وكانت تخبط قدميها بالارض ، او يديها على المائدة ، كأنها ترقص جالسة ، او تطير مكبلة . ولم يكن ثمة ما هو اعز لديه من ان يراها تشع بالابتسامات ، وتفيض بالسرور كأنها احدى اساطير المرح . وفجأة ضربت كتفه بيد قوية وصاحت به : احميد . . . الا ترقص ؟ فقال مذهولاً : بكل سرور ، ولكن كيف وليس لدينا موسيقى ؟

قالت : وما شأن الموسيقى بنا ؟ سأصفر لك ونرقص على الايقاع . على انها ما كادت ترقص قليلًا حتى سحبت نفسها من ذراعيه وارتمت على المقعد . لقد اخذ وجهها بالتحول والتلون ، بين احمر مخنوق ، واصفر ذاهل ، حتى غدا شيئاً لا يوصف . وعندما تلاشت على المقعد متعبة ، انحسر ثوبها عن ركبتها ، فبدا جزء من جسدها المورد ، كأن الشمس سفعته او الخمر صبغته . ومالت عين الفتى اليسرى فرأى . واحست هي فلم تحرك يدها ، ولم تأبه لانبثاق هذا الجزء من جسدها الرائع . بل تركت يديها متلاشيتين على جنبيها كأنها محمولة في الفضاء فاقدة الوعي . ثم ما برح الثوب ينحسر اكثر فاكثر ، وينسحب بتمهل وصمت ، حتى لم يبق للجسد بعد هذه الاطلالة البينة الا ان يصيح وينطلق .

خطر للفتى ان ينبه فتاته الى هذه الجلسة غير العادية ، لكنه عدل حرصاً على شعورها وتجنباً لاثارة خجلها . فدار على بعضه نصف دورة ، وحول بصره كأنه يجيب بعزة ، وشرف ، وصمت ، على ثقة لوسي به . اذ انها لو لم تكن واثقة مطمئنة ، لما تركت لحركاتها حريتها . على ان ذراعي لوسي ما لبثتا ان ارتمتا على كتفيه وسقط رأسها على صدره ،

فذهل واضطرب وهتف بها : لوسي . . . لوسي . ماذا اصابك ؟ قالت وهي تتنفس بشدة : لا شي . . . لا شيء . قال مضطرباً : ألعبت الحمرة برأسك ؟ فاجابت كطفل يروى حلماً : انا مريضة .

ثم رفعت رأسها عنه ، وقامت لترتمي على سريره ، محمومة مكدودة ، كأنها جاهدت جهاداً تزف له دمها ، واهرقت عصارة جسدها . وكانت ارتماءتها على السرير طيعة لينة ، غريزية ، كالثمرة دفعتها انامل النضوج فسقطت على الحشائش الخضر في فيء الشجرة الحانية الاغصان .

وهو . . . احمد . . . لم يكن يفقه ما يحدث . ان كل ما يراه يبعث النشوة في صدره ، ويفعم بالحب قلبه ، فلم يكن في دوار الطرب ليقف فيفكر ، او يطلب مزيداً . ان النعمة قد فاضت عنه ، كما يفيض البحر صب في فنجان ، فهو مكثور ، مغمور ، مضطرب .

هي الليلة الحادية عشرة واحمد ينتظر كالعادة اشراقة لوسي في غرفته . غير انها لم تأت . ولم يرها في الليلة الثانية عشرة . لقد سأل نفسه عنها ولم يكن قلقاً . ثم لم تلبث الحيرة ان فاجأته ، والجزع ان اخذ بقلبه لان لوسي لم تأت فيما بعد .

انتظر يومين آخرين . وفي اليوم الخامس انطلق مبكراً في حي الطلبة يتصفح الوجوه التي تعرف لوسي والتي يمكن ان تعرفها . لقد انكرت الرفيقات معرفة اخبارها ، واما الرفاق فراحوا ساخرين عندما رأوا احمد بعينين ضائعتين ، ينتقل من مقهى الى مقهى ويغشى مطعماً اثر مطعم .

لقد برّح به الشوق ، والقلق ، حتى كاد يتلف . وبدأ يشعر انه مريض . وقد يغدو مسلولا . انه يتنشق دخان المعامل . بل انه يعيش في مدخنة معمل ، في بلاد يكتنفها الضباب ، ولا تطلع شمسها الا مرة في الشهر اذا جادت واحسنت . انه لا يستمرىء هذا النوع من الطعام الذي لا دسم فيه ولا ملح ، ولا يطيق ان يرى رحى المدينة الكبيرة تدور على صدور الملايين . ثم ما فائدة العلم ؟ وهل جاء يتلقى علومه في هذا الجو من الصخب والعجاج والضباب ؟ ولقد كان يخيل اليه انه ما جاء الا ليرى لوسي . وسيعود عندما تعود معه .

وها هو يعثر اخيراً على ورقة كتبت عليها عنوانها ذات يوم ، قبل ان تتمكن بينهما اواصر الحب . وما كان قبلا ليهتم بعنوانها وبيتها ، فصمم ان يراسلها . فكتب اليها :

لوسي ! اين انت ؟ هل تشعرين بحرارة هذا النداء ؟ اين انت ؟ أمريضة فذهلت ؟ او مسافرة فسلوت ؟ هل تركتني مازحة ام عامدة ؟ انني لا افهم ! لقد كان كل شيء يدلني على انك احببت . فكيف ادينك واحكم عليك ؟ وبمَ ؟ اين انت ؟ واين تقيمين . وما هي اخبارك ؟ انني اعيش في هذا الجحيم الذي هو مدينتك الصاخبة ، الداخنة ، وقد قطعت على نفسي عهداً ان ابقى بها ما بقيت انت الى جانبي ! ان مدينتك تسحقني ، ورحاها تدور فوق عظامي . يخيل الي انني اختنق او تفترسني الوحشة . انني انتظر وانتظر كل مساء وكل صباح ، وكل ساعة ، وكل دقيقة حتى تعودي .

واستطاع الفتى ان يصبر ثلاثة ايام قبل ان يقرأ جواب رسالته .

ايها السيد العزيز

كنت في زيارة عند عمتي في الضاحية وعدت اليوم فقرأت رسالتك الطيبة التي اجيبك عنها دون ابطاء .

ان كل ما ارجوه منك يا سيد ، ان تكف عن التفكير بي ، او التفتيش عني ، او ملاحقتي ، او مراسلتي . ولي في ذلك حجة قد تدركها وقد تجهلها . . . وسيان لدي . . .

انني لا اقول : لا احبك . بل اقسى : انني امقتك . ان نفسي لتجيش واحشائي لتختبط اذا رأيتك كأنني تخمت بقلاوة حلوة ، وقهوة خاثرة . وما اخالني احس بعد اليوم اذ ارافقك ، الا كما يحس التائه في الصحراء ، لا يؤنسه بها سوى رنين الاجراس المعلقة في رقاب الجمال . اما الرحى التي تدور على عظامك ، فأنا ارقص عليها وازداد نشوة ومتعة . ان رئتي ايها المسكين ، الفتا استنشاق الدخان حتى بت اشتاقه عندما لا اجده . فكم ارثي لك . لا تنتظر ـ اقول لك ـ ولا ترج ، ولا تفكر لانني لن اعود .

اسمح لي يا سيد ، ان ارد لك صورتك الجميلة جداً التي قدمتها لي ذات مساء باهداء بليغ : « اليك يا ملاكي . . . اقدم صورة رجل . . . »

يا للأسف ، ايها السيد الطيب ، انا لست ملاكاً . . وانت . . . أنت لست رجلاً : الوداع !

احلام يولاند

من وحي باريس

عجبتُ به منذ عرفته . فقد كانت « يولاند » من الطبائع الاوروبية الرقيقة الشاعرة ، وكان حسن من النماذج العربية المنحوتة ، طولاً وعرضاً ، وسمرة وخشونة ، على اصول شرقية ، وسمات صحراوية .

واعجب بها هو ايضاً ، لان الغرب قد تمثل خير تمثيل في ذكائها المثقف ، وملاحظاتها الدقيقة . وهي وان تكن من دوحة ارستوقراطية انقرضت ، فقد ظلت تحتفظ بارستوقراطية فكرية اجدى وابقى . واعجب بها الى جانب ذلك لانها مثال لسذاجة الانثى عندما تتكلم عن الشرق وتتحدث عن الشرقيات . فلم يكن يرى نفسه صغيراً امام ذكائها واطلاعها الا رأى نفسه عظيماً جليلًا ازاء سذاجتها وحبها الشرق فيما تتصوره عنه

وتحلم به . على انه لم يكن يدل عليها بتفوقه ، ولم تكن هي تفاخر بمعرفة يجهلها او بمدنية لا عهد له بها ، بل كانت تقول له اذا انست منه بعض القصور : الله آلم . . . موش هيك . . . يا هسان ؟

بقي ان نعلم اذا كان هذا الاعجاب المتبادل بنفسه ، حباً مموهاً ، يقصد كلا الطرفين حجبه ، للغزو به على طريقة « حصان طروادة » . هذا امر لم ندركه لان علاقة حسن بيولاند ظلت لدينا مجهولة النتائج .

على ان حسن يقول ان الفتاة عندما عرفته في احد الاندية ، وطاب حديثها معه وانسها به صارحته ان رغبتها فيه ليست الحب ، وانها ملت تلك الاساليب التي يلاحق بها الرجل المرأة في شوارع باريس وانديتها . وقد صارحها هو بدوره مؤكداً لها ان تقربه منها لم يكن حباً . فهو يكره العيون الواسعة الزرقاء ، التي يجول فيها الذكاء جولات ظاهرات ، ويخشى الانوثة المتحصنة باشعة من لهب الذكاء وقوة الارادة . وفوق ذلك فهو لا يحب هذا القد الاهيف حتى النحول ، وهذا الصدر الرشيق حتى الضمور . وانه ملازم فطرته العربية في حب الخصر الدقيق والردف الثقيل والصدر الناهد ، والقد المترنح

تعباً وغنجاً . وان كنا لا ندري فيما اذا كانت صراحة الرجل قد جرحت انوثة يولاند ، فاننا نعلم عن طريق حسن انها افهمته صريحة انها وان كانت تحب الرجولة القوية والعضل المفتول فانها راغبة عن مثل هيكله الضخم ، ووجهه الاسمر الاصفر ، المملوء بثوراً . وهكذا فقد اجتمع الشرق والغرب ، على الاقل ، مرة واحدة على ما بينهما من تناقض وتباين .

ان اعجب ما اعجب به حسن من رفيقته ، شعرها الاصفر الذهبي ، واما هي فقد شغفت بفمه حينما يبتسم فقط ، فتظهر اسنانه البيضاء بين شفتيه السمراوين المشربتين بحمرة خفيفة . وقد اشتهى حسن ذات يوم قبلة من تموجات الذهب في شعرها السبط الناعم فنالها دون كلفة . ولم تكاشفه يولاند حتى الآن بأية رغبة في قبلة من اسنانه .

ثم ان يولاند كانت مفتونة بالشرق اي فتنة . واحب ما احبت من كتّاب بلادها سيرهم التي عاشوها في صميم السحر ، وكتبوها ، ومن هؤلاء كلود فارير ، وبيار لوتي . وقد اقترحت على صديقها ذات يوم رحلة الى الشرق عن طريق قصبة الغليون ، عن طريق الافيون ، طريق العاجزين عن الوصول اليه بالاقدام . فأبى وتمنع بحجة انه لو فعل لفقد ذات يوم متعة النظر الى

الشرق بحاسة النظر واللمس . انه يخشى ذلك ، ويخشى ان يمقت بلاده وهو يعيش فيها .

ـ ثم لماذا العبث يا بولاند ؟

ـ عبث ؟ اريد بعض الانعتاق !

ـ ولكن ليست هذه طريق الانعتاق . . .

ـ بلى هي نفسها ، الطريق الى اثيوبيا الشرق ، حيث تسكرني ارواح الرند من واد لا تغيب عنه الشمس .

ـ لقد افسدك الادب وطوحت بك مطالعات اشبه بمفرق طرق يؤدي بعضها الى بعض في دوائر لا ينتهي دورانها . انا لا افهم كيف يستطيع الذكاء الغربي ان يصطنع لنفسه مثل هذه الاوهام ليتيه بها مختاراً . انه انتحار الذكاء . فالشرق ، لو تعلمين ، ما هو الا الصحراء المحرقة ، والفقر ، والاديان . وما جئناكم الا لنعرف كيف يعيش سكان الواحات في ظلال الرخاء والذكاء والعمران والابداع . . . والحركة والعمل والحياة المملوءة بمكافأة الجهد والعناء ، لنأخذ عنكم ونقبس من رقيكم . . .

ـ لن تجدوا في واحاتنا ما تطلبون .

ـ ثم هذا الادب المسموم الذي تقرأين . . . هذا الادب . . .

ـ انه العزاء الوحيد ، في مدينة آلية ، يصطك فيها الحديد بالحديد ، وتفنى سواعد الآدميين في اشباع نهم الغول الذي لا يشبع . الا تحس بشبح الحرب يهدد هذه الواحات ، واحات الذكاء والابداع ! انت لا تعلم لماذا ؟ لان الحديد الذي لا يقوم اوده بالتهام سواعد الآدميين ، صار يطمع في حياتهم نفسها . قرأت ان عاملاً سرق من معمل كبير لصنع السكاكين ، سكيناً ، عملت يده في اخراجها ، كعامل من الوف العمال ، ووجد ذات يوم في مخدعه ، جثة هامدة ، والسكين التي سرقها في نحره . اتظن انه سرقها لينتحر ؟ كلا بل ليقطع بها خبزه وفاكهته . فهل علم وهو يسرقها انه قاتل بها نفسه ؟ لا ! كذلك فان هؤلاء الملايين الذين يكدحون في واحات الابداع والذكاء ، لا يعرفون أيصنعون أدوات ومنافع ، ام يقدون اسلحة ينتحرون بها ، ويشحنونها عبر البحار ليهاجمهم بها اعداؤهم الذين يكدحون مثلهم في صنع الحديد . الحديد . الحديد . أف . انني احس طعم الصدأ والدم في مأكلي ومشربي . وانت لا تصدق ! لان اسنانك الحلوة البيضاء ما تحس بينها سوى طعم الحليب والفرصد .

ـ اوه . انت تمزحين يا بولانـد ! لست على الاقل كما

تتصورين ، حيواناً بريئاً يعيش على الحشائش واللبن .

وضحك حسن ضحكة عريضة . وصمتت يولاند صمتاً ذاهلاً بعدما افرغت من عروقها ثورتها . ثم شعرت ببعض الحاجة الى الراحة ، فوسدها كتفه وهو يقول لها : تنكرين كل ما أرى وانكر كل ما ترين . فلا ادري معنى لوجودنا معاً !

قالت : كنت اود ان اقول انك غريب في بلادك على ما يظهر كما انني غريبة في بلادي . ولعل اجتماعنا كان صدفة ، في نقطة الافتراق !

ـ نقطة الافتراق ؟

قالت يولاند ذات يوم بدلال ورجاء : هسان . . . لماذا لا تأخذني الى الجامع ! احب ان اراه .

فالتفت حسن نحونا وكنا زمرة رفاق مسترشداً بالغمز : أتذهبون ؟ قلنا : نذهب . وسرنا نحو جامع باريس .

كانت يولاند تسير الى جانب حسن ، تتلفع عنقها الى الوراء بين فترة واخرى لتطلع الى رفيقها ساكتاً او متكلماً . لقد كان حسن يشعر احياناً ان يولاند تحبه . ولعل مثل شعوره يخامرها . غير انهما متفاهمان فلا موجب للحسبان . فهي

ليست جميلة بعينيها البلوريتين الزرقاوين . وهو ليس جميلًا ايضاً بسحنته التي تشبه احد خدّام امير شرقي في رواية قرأتها . او انها تذكر به دائماً « عطيل » الافريقي بطل شكسبير . هكذا انبأته ذات يوم .

قالت له بينما كنا نسير ، وهو صامت بليد : انّ لك عيني نمر شاهدته مرّة في حديقة الحيوانات . وبشرتك السمراء ما رأيتها قط في حياتي الا على جلد افعى تتلوى على يد احد الحواة السحرة .

قال حسن وبه حدّة : اشكرك . بامكانك اذ ترينني كل يوم ان تقتصدي خمسة فرنكات فلا تذهبي بعد الان الى حديقة الحيوانات . أما انت فتشبهين حرباءة دهستها مرّة وأنا امشي في احد الحقول . لقد كانت عيناها الخارجتان من وقبيهما مثل عينيك تماماً ، عندما كانت تموت . أما ظهرها العظمي العاري فاشبه الاشياء بنحولك الاهيف !

ـ هذا خيال لا اظن ان له في الواقع اصلًا . اقسم ما دهست في حياتك حرباءة .

ـ واقسم انا انك لا تعرفين لون عيون النمور ولا رأيت حاوياً على يديه افعى تتلوى الا في الروايات . وهل انا احسن

الاختراع اكثر مما تفعلين !

وكانت الامطار تنهمر سيولا فتغسل الشارع الاسفلتي الوضاء السواد . وكدنا ننسى انفسنا تحت انهار الغيث والرفيقان يتندران ويتراشقان النكات . وما هو الا بعض ساعة حتى قطعنا الطريق التي تصل الغرب بالشرق ، والمدينة بالجامع .

انه ليس جامعاً على الضبط ، بل سفارة عمرانية شرقية ، افريقية على التخصيص ، ما الجامع إلا دائرة من دوائرها التي هي المقهى والمطعم ، والمخزن والسوق ، وسوى ذلك . وكل ما في هذه الدوائر من مأكل ومشرب وملبس ، شرقي عربي ، افريقي . فنفضنا عنا رشاش الغيث ومسحنا رؤوسنا المغرقة بالمناديل ، ودخلنا المقهى .

كان الزبائن ، وكلهم اوروبيون ، الا فتى زائراً شرقياً غريباً ، يتكومون في كل زاوية ، ويدورون حول كل مائدة يتأملون في الجدران والسقف ، والوسائد والبسط ، وفناجين القهوة وسراويل الخدم وطرر طرابيشهم ، يشربون القهوة ، والنعناع ، ويأكلون البقلاوة وما ماثلها من حلويات شرقية ، شديدة الحلاوة ، شديدة الاغراء بشكلها وصنعها . وكلهم في ذهول واسترخاء ، يحلمون . ثم لا شيء حولهم سوى الغمام ورائحة البخور والقهوة .

نحن في جو شرقي ، كما يتخيله الغرب ، في مسرح ليس على الضبط شرقياً طبيعياً فيكاد يكون من خلق « الكوميدي فرانسيز » . فالمقهى ردهة مستطيلة . منقوشة الجدران بالحفر . مفروشة بالبسط والحصير المتعدد الالوان . تدور بها دكك واطئة ، وموائد صغيرة تعلوها صفائح نحاسية صفراء منقوشة . وكانت الوسائد ، القماشية والجلدية ، من مستديرة ومستطيلة ، ترمي وتتوزع هنا وهناك داعية الى الراحة والكسل والاتكاء . وكان السكون الثقيل ، تتخلله بين الوقت والاخر ، انغام التخت الموسيقي الشرقي المؤلف من عود وقانون وكمان ، ودف ودربكه ، تثب نحوه القلوب ، وتعلق به الابصار ، حيث جلس خمسة من اخواننا المغربيين بآلاتهم يهزون رؤوسهم ويغنون ، وهزة الرأس ابرز ما يميز الطرب في التخت الشرقي ، ويصوتون معاً : بلدي . . . يا بلدي .

ما هذه الاشباح ؟ اهي أخيلة الظلال ؟ اهي الشرق حقاً ؟ سراويل وطرابيش وبخور وقهوة وانوار مخنوقة شاحبة . ووراء كل هذا احلام ذهبية ، وخرافات واساطير ! . .

رأيت الانوثة تحلم في هذا المسرح المعطر بدخان الاحلام . فاين الامير الشرقي يهبط على بساط الريح ينتشل من احدى

البقاليات بائعة حلوى ، ويرتفع بها الى اعلى عليين ؟ وبماذا كانت يولاند تفكر بين هؤلاء النسوة ؟ الا تزال تتمثل كيف تكون صورة حرباءة مدهوسة ؟ اوصحيح انها عجفاء وتافهة مثل هذه الحرباءة الكريهة المرسلة عينيها الجاحظتين وهي تموت ! انها صورة بشعة ! ولماذا يسحقها حسن في مهارشته ! لقد كانت تداعبه فلمَ راح يلسبها بسخريانه لسباً ؟

هزّ الفتى يولاند من كتفها قائلا : هل اعجبك المقهى ؟ ارجو ان تكون قد خابت اوهامك عن الشرق .

كنا نصيح ونغني مع التخت ونذيع حولنا جوّاً حاراً من العربدة والصخب ، خلافاً لما يستدعيه الجوار حولنا .

فقالت يولاند : ولكن قل لي أعندكم مثل هذا كله في بلادكم ؟ اهكذا تغنون وتجلسون ، وتأكلون وتشربون ؟ وهل كنت تلبس الطربوش سابقاً ؟

ـ طبعاً ، ارجو ان يكون ذلك من دواعي سرورك .

ـ اوه . لا ادري . ثم قالت : اشعر بصداع .

لم تكن يولاند مرحة ذكية الآن . ان تفاعلا نفسياً يتم في داخلها لن يطلع عليه احد . ولم اكن آنئذ لاهتم بشأنها فاراقب سر تلك النفس الحائرة . فطلب لها حسن قدحاً من الشاي

والنعناع فحضر بالقدح على الفور غلام عربي فاخر ، يجب ان يكون لي قلم اندريه جيد ، او كلود فاريير لأصوره واتبسط في وصفه .

جمدت عليه عينا يولاند ، ورأيت في هاتين العينين جمالا ميتاً يستيقظ ، جمالا كان يحاربه الذكاء كلما أطل . وكان الغلام يبادل يولاند نظرات مغرية فتانة . لقد وقف في مكانه ، بقامة منتصبة ، ذات خصر رقيق ، مضغوط بشال حريري ازرق ، من تحته سروال من الجوخ الاسود . وكان طربوشه الطويل يميل ميلاً واضحاً فيتكىء على اذنه اليمنى التي تكاد تداعبها طرة الطربوش . فتى في العشرين ذو سمرة محببة لامعة ، تبعث في المخيلة صورة جني مولع بالعبث والاغراء .

نطق الغلام بفرنسية متقنة وانحنى بادب جم وهو لا يزال يحدج يولاند . فوضع قدح الشاي على الصحيفة النحاسية وعاد واقفاً . جرى كل ذلك بتوان وحسن ينظر ويعجب . ماذا اصاب يولاند ؟ دعاها ان تشرب فلم تسمع . وسرعان ما صاح بالغلام : الا تنصرف ؟ اشكرك .

فقبضت يولاند على القدح بجمع كفها كأنها تلذ سريان حرارة السائل الاحمر في عروقها ، وراحت تحتسي بجرعات

هادئات متقطعات ، مستمرئة لذة المشروب الحار ، فلا يلبث ان يخرج على جبينها قطرات ندى فتذبل عيناها وترتخي خطوط وجهها . وتعود فتشرب من القدح البلوري المخصور بهدوء وتضغط بشدة .

منذ دقائق كان حسن لا يكترث برفيقته ، لاهياً عنها بعربدته ، مدعياً ان ما جرع من الشاي قد اسكره ، فهو نشوان ثمل ، وهو مشتاق الى بلاده يريد ان يغني ويصرخ ، ويفصح عما يجيش بصدره من الف شعور وشعور . ثم صعقه الجمود وظل يرقب بولاند بطرف عينيه .

هل انتقمت بولاند ؟ وهل استعملت الانثى سلاحها حيث تعجز الثقافة والذكاء ؟ انها ليست حرباءة على الاقل . وحسبها من هذه الثورة التي احدثتها ان شعرت هي بتفوقها .

اما هو . . . حسن ، فهل ارتدت عليه غرائزه البعيدة ، فغار ؟ وعلى من ؟ واي حق له في هذا الملك المشاع ؟ ومتى اباحت له رفيقته ان يمس بانامله حريتها ؟ هنا ، اترك فراغا من المجهول ، لا استطيع ان املأه بالتأويل والتحليل .

اعتقد ان حسن كان اجبن من أن يعكر صفاء هذه النشوة التي ولدت منذ ثوان في ضمير بولاند . ولكن أهي

نظرة عابرة ، تلقيها على عابر ؟ وما سر هذا الاضطراب الذي اربك حركاتها عندما انتصب امامها هذا الوجه الاسمر النادر ؟ لقد فصدت الغيرة عرقاً كبيراً في رجولة حسن فاذا به يتقلص وتسيل قوته مع نزف لا يراه . واذا لم تكن الغيرة . . . فماذا تكون ؟ فاكتفى الشاب ان يلاحظ لرفيقته بان الغلمان وقحون في هـذا المكان . وسرعان ما اجابت بان اساليب الخدمة والمجاملة ليست قحة !

بعد ربع ساعة خرجنا من حديث وهو فاذا بيولاند ليست الى جانبنا . فقـد توارت من ارجاء القاعة . ليس في ذلك ما يدعو الى الدهشة . ولكن رفيقنا كان مضطرباً . فنهضنا نفتش عنها لانها غريبة عن المكان كما ندعي ، او انها في ذمتنا ومسؤوليتنا كما تدعي حسن . فلم تكن ضالتنا في المطعم ولا في الساحة الخارجية ، ولا في الاروقة . فانتشرنا في مطلع الشارع ثم عدنا لنجتمع في الساحة . وقد لاحظ احدنا همساً في اذن رفيق له : هل تبخرت مع دخان الشاي ! وقال آخر : لعل الاسمر الجميل اختطفها ! وما هي الا نظرات تبادلناها حتى اندفعنا معاً نحو المخزن او السوق التي تباع بها بعض العاديات الشرقية . وامام ركن من اركانها المعتمة ، عقدنا سواراً حول شبح

يولاند . لقد كانت هناك .

كانت تنتصب امامها نرجيلة طويلة ، يتصاعد من رأسها المحترق دخان ابيض ، بثّ في الجو اولى الغازة العطرية ، وكانت تداعب بيديها نربيجاً اصفر ، وعلى شفتيها المعبرتين عن ابتسامة الرضى حلمة النربيج العاجية . واتكأ على سجادة بين يديها ، مغربي ، يحرك اصابعه السمراء في صفيحة من الرمل الاحمر . ولم يكن النور يصل الى هذا الركن المنزوي الا من خلال زجاج النافذة الاحمر والاخضر ، فبدت يولاند في مسرح عبقري الاخراج .

صاح حسن : يولاند . . . ماذا تصنعين ؟

قالت فوراً وباسترخاء : أطل على الشرق !

ـ وما معنى هذا الرمل ؟

ـ اراقب نجمي .

ثم افهمتنا يولاند باغضاءة ناعسة انها تفضل العزلة فلا تريد ان تدخل في رؤاها وجوه غريبة ، لاننا نحن ابناء الشرق غرباء في شرقها المسحور ، فانصرفنا . وعندما عدنا لنعقد جلسة حول الصحيفة النحاسية ، أطرق حسن ذاهلاً . وكانت هذه الاطراقة العميقة ، المبهمة التي لا ادري حتى الآن كيف اشتركنا بها

ولماذا . . . آخر مشهد من القصة والستار ينسدل عليها .

لم نعد نجتمع الا لماما . ثم ان الطريق التي اوصلتنا الى عاصمة اوروبا ادّت بنا بعيداً عنها ، ووزعتنا الشمس ثانية على اطراف الصحراء .

كنت اود ان اعلم كيف جابه حسن مصيره ، واين هو ؟

ربيع بنفور

حكاية نفس

خلعت ثيابي ، وارتميت في البركة الزرقاء ورحت اخبط بذراعي وقدمي المياه المتلوية المصفقة على جسدي تبادلني دعابة بدعابة ، وبهجة ببهجة . وقبل ان انتشل نفسي من هذه النعمة المائرة ، نهرتني امي ، وذكرتني بما اصابني في العام الفائت من مرض رئتي ، واهابت بي ان اخرج من الماء البارد يا مجنون !

أأنا مجنون حقيقة ؟

كان لا بد لي من الحمام البارد ، كل يوم منذ اسبوع ، فقد هجم الربيع في هذا العام بنوبة حمى عنيفة ، ترك الورود نفسها تتلوى وتذوي ، وكانت الاجواء تحتبس حول الارض ، حتى ليخيل الي احياناً ان السماء تكاد تنطبق على التراب انطباق الكف على الكف ، ثقيلة لا تتململ .

جلست مساء امس الى النافذة ، ووضعت كتبي بين يدي ورحت اراجع دروس الهندسة ، فلم استطع متابعة التفكير . قلت : لعل التاريخ ادنى منالا من فهمي المتبلد الثقيل ، فرحت اقلب الصفحات بملل وفتور . ثم ما لبث ان زاغ بصري ، وحسبت ان حملة نابليون على مصر تمشي على جسمي ، وغبار المعارك يدفنني ، فاشتبكت مع جندي في قتال . . . وجرحت وأغمي علي . ولا ادري ماذا بعد ! اذ ذاك اندفق من نافذتي خطافان من نوع السنونو ، فراحا يهوّمان في جو الغرفة ، ذهاباً واياباً ، وصعوداً وهبوطاً ، مزغردين فرحين . وعندما انسا في خشبة ما منزلا رحباً ، جثما متلاصقين ، متوادين ، بعد ان زرقا على الوسادة البيضاء التي كنت اتكىء عليها شيئاً اخضر اسود . . . كأنهما في لذتهما الهانئة لا يحفلان بما في سرورهما من ازعاج وقحة واستهتار !

. . . مسكين المعلم ، استاذ الرياضيات ، لقد بدا منذ ثلاثة ايام مخبولا ، متبرماً كأن الوظيفة تجره الى ما هو اقسى من عذاب جهنم . لقد كان يلقي الدروس بجهد واعياء ، كأننا بسكوتنا ، وشخوصنا نحوه ، نجرّعه الواجب الثقيل جرعات متوالية ، تغص عليه صدره ، وكأنه محكوم يمثل امام المحكمة

لتجرعه يوماً بعد يوم ماء الاعدام . . . حتى يموت . ما ذنبنا ؟

انه شاب ايضاً في محط الثلاثين او الثانية والثلاثين ، فخور بعلمه ، معجب بوقاره الذي لم يكن بالتالي سوى وقار مصطنع ، ما لبث ان خرج عن حدوده وتقاليده منذ ايام ، عندما دخل علينا وقد اناط بعروة سترته كم ورد احمر ، كأنه قلب صب بكر . . .

. . . وكم كانت دهشته مربكة له ، مثلما يرتبك اي انسان بسيور حذائه ، عندما بدأ يقرر الدرس ، والعيون لا تنظر في عينيه بل في الكم الاحمر المتهدل بدلال على صدره كأنه رأس فتاة جميل . قال بنبرة غاضبة وقد اخرج من جيبه منديلا ابيض ، حسن الكي ، تضوّع منه عطر فواح : ما بالكم كالبله المصروعين ، تنظرون الى اللوح الاسود كأنكم الواح من خشب ؟ ثم تقدم الاستاذ مني ، بعد فترة سكون — ولا اعلم لماذا اختارني من دون العشرين من زملائي — واوقفني بحركة من اصبعه المحددة الظفر ، والمصقولة على الطراز الحديث . . . وهتف بي : قل . . . انت ماذا كنت اقول ؟

فصمتّ ، وصمت الاستاذ معي ، كأنه هو نفسه لا يذكر ما كان يقول . وقفز طالب آخر ، أنقذ موقفي وموقفه معاً ،

وقد تلألأت في مبسمه ابتسامة هزء خجلى وقال : استاذ . . . والله اننا لا نستطيع ان نعي كل ما يقرر في مثل هذه الايام الشديدة الحر .

. . . وكان كلانا ينظر الى اظافره المصقولة (على غير عادته قبل هذا الاسبوع) .

قال الاستاذ : بالعكس . بالعكس . اجلسا في مكانيكما . تماماً بالعكس . ان ايام الربيع تبعث النشاط ، وتوقظ الذكاء ، ولاسيما ان الامتحان على الابواب !

ثم احمر وجه الاستاذ ، واصفر انفه في وجهه الاحمر . وكان ذلك دليل اضطرابه وهياجه وكذبه . وكأن خطابه هذا قد كلفه مجهوداً داخلياً عنيفاً ، فاخرج منديله المعطر ، ومسح به ما نزح من جبينه المحموم . ثم ارجع المنديل الى مكانه بعد ان ترك في الجو ذيلاً من الرائحة ، يكاد يقود الى سر الكم الاحمر الذابل على صدره !

ما لي وللاستاذ ؟ لم تبق لي رغبة في الدرس . ان الربيع ثقيل ، حتى اثار خمولي وكسلي وفضول والدي ، فراح يسألني عما اذا كنت اتابع اجتهادي لانجح هذا العام ، وهو الاخير من اعوام الدراسة الثانوية ، وكان ذلك لاول مرة منذ اودعني

مقاعد التدريس . ولا بأس من القول هنا ان والدي ذو مرح وخفة ، ومزاج ديموقراطي رخو ، في معاملة اولاده الثلاثة الذين استغلوا سعة صدره ، ورحمة ديموقراطيته ، فترك اثنان المدرسة باكراً ، وغدا احدهم نجاراً والثاني خياطاً ، ونجوت انا بأعجوبة حتى الصف الحادي عشر .

اليوم اثرت غضب والدي دون ما قصد مني ، وقلما ثار غضب هذا الشيخ الا عندما يأوي المساء الى البيت فلا يجد امي بانتظاره .

كان جيراننا يحتفلون بعقد خطبة ابنهم احتفالا صارخاً القى الحماسة والفرح في قلوب الجميع ، ففتحت النوافذ على النوافذ ، واطل الجيران على الجيران ، وكانت الزغاريد تشق الفضاء ، وكان نقر الدفوف في الكفوف كنبض القلوب في النحور ، وركضت في السلم حافياً لاطل من النوافذ العليا على الجيران ، اهل صديقي العريس . وعندما دخلت الغرفة مفاجئاً شاهدت والدي يعانق زوجته ، امي ، بحنان شديد ، وسمعته يقول لها :

ـ اتذكرين يا وداد . . . يوم خطبتنا ؟ لقد كان يوم ربيع مثل اليوم !

وقبل ان تجيب والدتي ، كنت في الباب جامداً كالصنم ، والزوج الملهوف ، والدي ، يلتهمني بنظرات حمر صاعقات !

غريب ! لا ادري كيف جمدني الخجل ، وهد ركبتي الخوف ، فلم اقو على الحراك . فليست هي المرة الاولى التي اشاهد بها والدي يعانق والدتي ، بل اذكر مثل هذه المشاهد منذ طفولتي الصغيرة ، منذ كنت انام معهما في غرفة واحدة ! فماذا جرى لي ؟

قال الزوج ، والدي ، غاضباً :

ـ كلب . . . حمار . . . ماذا تفعل هنا يا جحش ؟

ونظرت الي امي ، زوجته ، نظرة خاطفة ، وقد ازهرت في وجنتيها الذابلتين حمرة باهتة ، واردف ابي ينهرني :

ـ اين دروسك ؟ اين كتبك ؟ ما بالك تتطلع كالابله ؟

والتفت الى امي وقال :

ـ هيا بنا يا وداد . . . سنذهب الى « الربوة » لتناول طعام العشاء .

وعاد الي يقول :

ـ الزم كتابك ، ولا تبرح هذا المكان . . . واعلم انه لم يبق بوسعي ان اصرف على كتبك ومدرستك . اذا لم تنجح

في هذا العام فسأركلك بقدمي هذه (وضرب الهواء بوجله) واخرجك من داري .

ونهض مهتاجاً . وبعد ربع ساعة غادر البيت مع زوجته .

شعرت بالارتياح والغبطة ، اذ غدوت وحيداً في البيت ، كأن وجود والدي سجن . ولم يكن هذا الاب ذاك الرجل الذي يخنق حرية بنيه ، لقد فهمت سر غضبه . ولكن ما باله يغضب ؟ اكاد لا افهم شيئاً . آف . . . لقد طاب لي خواء البيت ، وخطر لي ان اصنع كل شيء ، الا الدرس . شعرت انني رب البيت ، السيد السائد وحدي . وكان شعوري بهذه الحرية يحفزني الى الاستمتاع . . . نعم الاستمتاع . . ولكن بماذا ؟

لا شك انني رب البيت ، وحدي ! فماذا اصنع في غرفة خالية وسرير وثير ؟

لقد كانت روائح الورود تصعد الي من الطابق الارضي ، فتملأ رغبتي نشوة ، واعصابي اضطراباً . واحتبست الغرفة قبيل الاصيل ، فضاق صدري ، وغام وجهي بالدم ، وازدادت في حيرة من امري ليفعل ما يطيب له ، ولا يعلم ماذا يفعل .

ماذا ؟ وجدت على المائدة الصغيرة ، قرب خزانة الثياب ، بين ازرار قميص ابي ، خمس قطع فضية ، من ذات الخمسة والعشرين قرشاً ، فالتهمتها كفي ، وخرجت من البيت مسرعاً .

بعد مسير نصف ساعة ، وجدت نفسي في بستان فسيح الجنبات ، ريان الزرع ، طازج الري ، انتقل بين اشجاره ، وادوس خضاره وازهاره ، مكتسحاً بقدمي رؤوس الاعشاب ، وتيجان الورود ، فظاً غليظاً ، كأن هذا الجمال بكل مفاتنه ينخس صدري ، ويستفز قباحة ذاتي ، ووحشية طبيعتي . كذلك يفعل بعض الكلاب اذ تتمرغ بين الاعشاب ، فتقصفها في لذة وحشية .

مشيت . . . مشيت دون غاية ولا فكرة ، وكنت استند بين الفينة والفينة الى جذع شجرة ، وانظر من تحت الى قبتها الخضراء تتناجى في تلافيفها العصافير ، كأنني هر جائع يكمن في الخفاء ليقفز على اول عصفور مسكين توقعه الصدفة بين مخالبه الحادة .

لم ترم بعض الاشجار بعدُ قمص زهورها الناعمة على السندس المخضل ، فظهرت في منبسط المرج كلالًا بيضاء تدعو الى الاستفاءة بظلها ، والاغماء بين انفاسها .

ان انفاسها حارة ، ويخيل الي ان الجو مخنوق بعبق لهاثها . كانت كؤوس الزهور متفتحة عطشى ، تطلب الري ، وتنشد القبل . وكانت النسمات واسراب النحل تحمل بين الكؤوس رسائل الحب وهمسات الحنين ، وتفرغ في كل زهرة حنينها الى الاخرى ، حتى اذا بلت غلتها واروت ظمأها ، ابتسمت راضية ، وانحلت لتسقط على الارض . انني اشاهد اكتم غرام يسري بين قلبين متحابين متباعدين . . . وهذا ايضاً شيء يدعو الى غبطتي الوحشية .

اخذت زنبقة فالتهمتها بنهم ، واستسغت مرارة رحيقها بشوق . ثم سحقت بين اصابعي تاج زهرة جميلة لا اعرف اسمها ، فتنفست وهي تموت رائحة كريهة . وركضت نحو كلة زهراء تتدلى غصونها مقبّلة الارض ، مهامسة العشب ، فهصرت فروعها وهززت اعوادها ، وامتلأت ثيابي باوراق الزهور البيضاء ، وعدوت نحو اطراف البستان ، احمل آثار الجريمة ، كابن آوى هارب من الحظيرة ، وفي فكه المضرج منتوف ريش الدجاج ! ثم هبت نسمة فاترة رطبة ، واحمرت الشمس المنحدرة نحو الافق ، وقد ثارت في قرصها ، وبوجهي زوبعة من البعوض الصغير .

وبينما كنت اسرح البصر على صفحة النهر المحمرة ، وانقله نحو الضفة المقابلة ، شهدت في ايكة قريبة شبحاً ابيض ، جذبني اليه ، فاقبلت نحوه ، اميزه واتبصر من امره . فدلفت نحو الجسر الخشبي ، وسرت على جذوعه المضطربة تحت قدمي وقفزت على الضفة ، ورأيت في الشبح الابيض امرأة وحيدة . فاندفعت نحو الايكة اندفاعاً لو فطنت اليه لصاحت طالبة النجدة .

ليست امرأة يا ربي . انها فتاة . . . صغيرة شابة ، اعطيتها من العمر سبعة عشر عاماً ، كانت حائرة بين الاشجار ، مضطربة في الظلال التي بدأ يسجيها الغروب في معارج الجنان وتلافيفها . لقد جلست بعد اضطراب بادٍ ، كأنها أنست الى فكرة طارئة وشعور جديد ، وكأن مثواها ببياض ثوبها بين الاشجار المائية مثوى حمامة ضلت طريق الصواحب فباتت في مهابط الغربان عند الغروب .

. . . اهدأ يا قلب ! لماذا تضطرب ؟ أأنت على موعد يا قلب . . . مع هذه الحمامة الوديعة ؟ اليس جديراً بي ان اسألها عن حالها ، فآخذ بيدها اذا كانت ضالة ، او اؤنسها اذا كانت مستوحشة ، او اعزيها اذا كانت يائسة ؟ لقد خطر لي لاول مرة ان اقتحم الحوائل دون امرأة ، فأكلمها مكتسحاً

امامي كل حياء وخفر وجبن وتردد ، كما يكتسح الحصاد صفوف السنابل نحو الصوى المنصوب في غاية الحقل . ولكنني سأتريث ، وسأراقب .

وزحفت متحفزاً كأنني سأثب على فريسة ، وهبطت بخفة قرد وراء جدار من العوسج الكثيف ، ووضعت عيني في خصاصه ورحت اتأمل .

لقد كان بيني وبينها نحو ذراعين او اقل . يا لله ! انني اشم رائحة جسمها ، وما تضوع من رائحة عطرها . ولو لم تكن مديرة ظهرها . لانصلت بي انفاسها والتهبت العوسج الاخضر . يميناً . . . انها المرة الاولى التي تدخل بها امرأة تحت قميصي ، ولو كنت احب دائماً ان اتعقب الفتيات ، وامتع بهن فضولي ، ولا ادري ماذا ! . .

وقليلاً قليلاً سمعت انها تتأوه ، وتمزق باصابعها وريقات وردة حمراء ، ثم ما لبثت ان رفعت صوتها وقالت :

ـ يا لله لقد تأخر !

ولبثت ريثاً في جلستها ثم قفزت فجأة وخطت بضع خطوات الى الامام فازاحت بعض الاغصان الحاجزة وصرخت طروباً :

ـ الي ! . . الي ! . . وتنفست مستريحة . وكان شاب في مستهل ربيعه ، مثلي في مثل عمري ، في العشرين او اكثر بقليل ، يحمل كتبه تحت ابطه ، ويتقدم راكضاً قافزاً . ولعله لمح الشيح الابيض . وتراجعت الفتاة ، فرأيت وجهها ، رأيته ، وشهدت معركة اندحار اليأس في عينيها السوداوين ، وما لبثت ان ارتمت على الارض مستلقية على ظهرها ، مستسلمة للنصر والحلم والنشوة والرجاء . وكان قلبها يهز نحرها فأرى رقيق ثوبها فوق نهديها . وكان شعرها المنثور يقبل العشب ، ويبارك الارض ، واما عيناها فكانتا تبتسمان للسماء ابتسامة هي كل عزاء الملائكة في عزلتهم البعيدة ، واروع صلاة يتقبلونها بشكر .

واحسرتاه ! تواريت عن هذه الجنة وخرجت من البساتين مهرولاً كأن ورائي عصا الحراس تقرع الارض وتدمي عقبي . وعندما احتوتني المدينة ثانية ، وكان المساء يبسط رواقه ، ركبتني وحشة ، وانكرت نفسي ، وانكرت الناس . فماذا افعل ، واين اذهب ؟

عدت الى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . فويل لي ، كيف أُقابل ابي ، وماذا اقول له ؟

نقرت الباب الخارجي ، نقراً خفيفاً ، وسرعان ما فتح لي ، وظهرت وراءه امي . لقد كانت تنتظرني لتفتح لي ، وتكتم امر غيابي . فسهرت الليل في الدهليز ، حتى لا اوقظ النائم بقرع الباب .

خاطبتني مشفقة عاتبة :

ـ اين كنت يا صباح ؟

ـ لا ادري .

ـ كيف لا تدري ؟ أفي مثل هذه الساعة من الليل يعود ابناء المدارس الى بيوتهم ؟

ـ اين ابي ؟

ـ نائم .

ـ هل انتظرني ؟

ـ لا . . . لقد كان تعبا .

كنت مضطرباً ، خافق القلب ، فوضعت امي يدها الرقيقة على كتفي ، وادخلتني غرفة الدار ، وكانت تمشي مثلي على اطراف اصابعها ، وقالت :

ـ اين كنت يا صباح ؟ لماذا هذا الشحوب ؟

ـ شحوب ؟ لا ادري !

ـ ماذا عراك ؟ هل انت مريض ؟

ثم جذبتني نحوها بلهفة ، ووضعت يديها على كتفي ، وصوبت عينيها الى عيني ، وقالت :

ـ هل اخذت قطع النقود التي كانت على مائدة الخزانة ؟ فاطرقت برأسي وقد صعقني خجلي .

قالت وقد اجلستني الى جانبها في المقعد الطويل :

ـ صباح ! انظر الي جيداً . ماذا فعلت بها . . . كل قطع النقود هذه ؟

لقد كانت نظرتها قوية بكل ما فيها من حنان ولهفة وخوف ، حتى خلت انها قبضت على عنق ضميري ، ودخلت حجرة سري . . .

ـ أجب يا صباح . . . يا ولدي !

فهوى رأسي على صدرها ، وكومت نفسي لاخفي وجهي في حضنها ، وكدت ابكي ، واجهش واصرخ . غير انني شعرت بيدها تربت على ظهري ، وبفمها يطبق على اذني هامسة :

ـ خبيث . . . خبيث . . . مجنون . . .

. . . ونمت تلك الليلة وكأنني لم انم منذ عشرين عاماً .

قبل المدفع . . .

قصة دمشقية

دنت الساعة !

وخارت القوى .

كذلك تخذل الحبيبَ ركبتاه قبل ان يلقى الحبيب .

اكفهرت الوجوه ، ولصقت الالسن ، وخطّت العيونَ خطوط اثمدية زرقاء ، أطلت من على جوانبها الاحداق معذبة طائشة حيرى .

دنت الساعة ولا تزال تدنو .

انها تطل من مغرب الشمس . محملة وعوداً ونداء جميلا .

وكأن الشمس بصفرتها الفاترة ، قد امضها الجوع ، واشقاها المسير على الطوى .

تحركي . . . تحركي . . . عقارب الساعات ، حيث يدوي المدفع ، وتنطلق المآذن بأصوات البشرى .

لقد نشطت القوى ثانية لان الدقائق الاخيرة تكاد تشبه مدخل دمشق من على ضفة بردى ، بعد مراحل الصحراء الجرداء .

وها هي ابتسامة الرضى والانتظار المطمئن ترين على الوجوه الصامتة .

وتتحدث العيون بنعمة السعادة التي دفع ثمنها غالياً .

فتحت المقاهي حلوقها العميقة المعتمة تنادي المارة : اهلا وسهلا .

واذاع « السماور » العظيم ، المتربع على دست من الفحم الاحمر ، رائحة منعشة دافئة ، وعما قريب سيحيط به سماره يحدثونه احاديث رمضان .

لقد ضمخت الدنيا نسائم الطيخ ، والشمس تنحدر انزلاقاً نحو المغارة .

ولكن المدفع لم يدو بعد ، والمؤذن لم يعلن بتسبيحته الداوية المكبرة حلول الاجل .

الناس يمشون ، يمشون اسراباً اسراباً ، صعوداً في الشارع وهبوطاً ، ويعلقون بحافلات الترام كما تعلق الذرات بابرة ممغنطة . وكان قاطع التذاكر يتجول بين الركاب وقد زهقت روحه . فيروح لاعناً شاتماً . ان قاطع التذاكر آخر من يفطر بعد ان

يبذر آخر ركابه كلا امام بيته ، وتنتهي آخر شحنة من المتأخرين .
وها هو رغيفه في جيبه مزنوق كروحه وصبره .

ومشى حميدان الصياد ، بين الناس ، ومع الناس ، كأنه احدهم وكأنه بانتظار ما ينتظرون .

كان يمشي على ضفة بردى متمهلاً ، كأنه مثقل بافطار دسم فراح يتنزه . حميدان لا يملك مالاً سبحان المعطي ، ولا رزقاً سبحان الرزاق . صياد سمك لم يصد البارحة ولا قبلها صيداً . فقد ورمت ركبته ، وفاح كعبه اثر جرح ، ولو غامر في الماء لتلف . صياد سمك رأس ماله قصبة وشص وشبكة مهترئة ورجلان كجذع شجرة ، طالما خوض بهما وغامر .

يا رب . . . يا ستار يا رب !

كان يرفع صوته بين الآونة والاخرى بهذا النداء ، ويمشي . . . ويتنظر ساعة الافطار ، وتعلق عيناه بتاج المأذنة ويشعر كسواه بدنو ساعة الاجل . ولوجه حميدان شارات خاصة في التعبير عن الشوق والوله : لقد اتسعت فوهتا منخريه ونفر عرقان ازرقان على جانبي جبينه الاسمر المقشور .

جرة الفول متكئة على قاعدتها باعتزاز وفوهتها مصوبة نحو

داخل الدكان كفوهة مدفع الافطار، ومن فوقها مصباح كهربائي يسطع كالبشرى او كنداء المؤذن : هلموا ! . . والتف منذ ربع ساعة بعض اولئك الذين لا يحملون الساعة ، حول الجرة وتحت المصباح ، لقمة باليمين ورغيف باليسار وحولهم في كل مكان على الجدران صور مبرقشة ملونة ، صور عنترة ، وابي زيد الهلالي ، والسلطان رشاد ، وحرب المضايق التركية ، صور الفوال واولاده وآبائه واجداده ، لوحات كوفية ، وعقود خرزية ، وكفوف ورقية وصور . . . وصور . وكأن كل من في الدكان من اشباح وارواح واشخاص عاشوا ويعيشون بانتظار دقيقة الافطار ، دقيقة تنطق جرة الفول ، ويسكت كل هذا الكون المسحور !

واما الشارع فقد اشتدت حركته وطغى ازدحامه . كان الناس في ذهاب وإياب كأنهم اشباح يدخل بعضهم في بعض ويخرجون . المدينة توزع ابناءها على مقاعدهم كأنها مدرسة ذات نظام ، والجميع سيكونون على موائدهم قبل المدفع او بعده بدقيقة أو دقيقتين . ان ساعة الافطار هي روح هذا النظام السائد والهدوء الشامل ، والسير العاقل .

ما ابدع هذا الاخراج المسرحي في دكان الحلوى . لقد كانت المصابيح المبكرة تشع فوق اطباق الحلوى فكان كل طبق وجهاً باسماً بالسعادة ، طافحاً بالبشر ، مغرياً بمفاتن العيش ، كأنه يقول للصائم الصابر : انا لك ! ووقف حميدان يتأمل .

لقد اندفع حميدان مع المندفعين ، واذا به يصل الى ساحة المرجة فجأة . فكأن الغريزة لا تعرف سوى هذه الساحة مكاناً للافطار ، لمن ليس له بيت ومائدة . فأدخل يديه في جيبي سرواله واسند ظهره الى عمود الساعة وثبت في مكانه . وكانت الساعة توزع الناس الى جميع الجهات كشرطي مرور لبق ، او كزعيم جوقة موسيقية حاذق . وكان كل من مر ينظر الى وجه الساعة . ونظر حميدان كما ينظرون كأن له علماً بأحوال الزمن في وجوه الساعات ، وهز رأسه وعض لسانه وابتلع ريقه ، وتساءل لاول مرة في هذا الغروب المبارك : ماذا آكل ؟ وأي شيء آكل ؟ وبم اشتري لآكل ؟

ولكن للساعة المقتربة في قلوب الناس سحراً انتقل منها الى قلبه ، واذا به كالناس لا ينتظر الا اشتعال رأس المأذنة وطلقة المدفع ، كسواه من الناس ، كالملايين من الصائمين . ومثلهم راح يندفع وراء خيال مائدته . وطغى عليه هذا الشعور الكريم

وجالت في عينيه رقانة من ماء النعمة والشوق والشكر .

وكان الناس يشترون من الحلوى ، ويمرون ، ويقفون ثم يمرون . وكان المسرح الجميل يحرسه على الرصيف غلامان يقميصين ابيضين كأنهما حارسا باب الخلد . واما صاحب الدكان فكان وجهاً هزيلا وشارباً اسود مسترخياً ، وقامة محدودبة ، وبشرة كلون قشر الرمان ، وبالجملة فقد كانت تبدو عليه جميع اعراض التخمة والقرحة المعدية ، من فرط التأمل بشره في اطباق الحلوى لا من فرط الاكل . وكانت نظرات حميدان تصعد وتهبط بين وجوه اطباق الحلوى ووجه صاحب الدكان ، نظرات جوفاء تعبر عنها شفة متدلية زرقاء فيها شق نزا عليه ريقه منذ حين .

الناس يشترون ويمرون ، ويمرون دائماً . ثم تفرّج الازدحام وهدأت اللاغبة وهبطت مغالق الحوانيت وكادت تقفر اسواق التجارة والعمل وانسحب النهار من الازقة الصغيرة والاحياء المتراكمة وهبط نصف الشمس وراء الجبل بينما ظل النصف الثاني يرسل اشعة لا تكاد تصل ، فحث القرويون حميرهم المحملة بآكل رمضان وهدايا العيد وساروا في خارج المدينة قوافل قوافل يهزجون ويغنون ويمنون النفس بأطايب الطعام في هذا الغروب الجميل ، على شرط ان يسبقوا المدفع الى مشارف القرية . ها

هي القرية تستعد لفتح السوق حيث يفرغ الفلاحون محمولاتهم ، فيقبلون يشترون ويتقايضون . إن في السوق رائحة دمشق ولكن الجو محمل ابداً بروائح التراب والسماء وانفاس الريف . في هذه القرية لا يوجد مخلوق مثل حميدان لا يعرف كيف يأكل . فالحياة تجري على سجيتها في عروق الريف الطيب . وقد لا تجري الحياة في المدينة الا في اقنية لا يشرب منها الا من يشتري ويدفع . . . فالمدينة تبيع كل شيء حتى الضمير وقشر البصل !

تناول حميدان طعام افطاره امس وراء دكة الفوال رغيفاً وصحن فول مسلوق وكوباً من مائه المملح . ولقد قبضت امعاؤه على هذا الغذاء رافضة ان تتنازل عنه ، فشعر الآن كأن الفول قد يبس مع امعائه . وبدأ الجوع يصرخ في احشائه كحيوان كلب مقيد بالسلاسل . فسالت دموعه دون ان يكون متألماً او شاعراً بحاجة الى البكاء ، فقد حاول اليوم ان يعيد الاكلة نفسها وراء الدكة الحمراء ذات الصحون البيضاء فخطر له ان يسأل البائع وقعة بالدين فور انطلاق المدفع ، ولكنه سارع فسأل ، فأجاب البائع : من انت . . . لا اعرفك ! قال

حميدان : انا صياد السمك ! فضحك البائع وقال : مرحباً . . . سمك ! وهز رأسه نفياً .

ما اسعدها ليلة منذ ثلاثة ايام عندما افطر في احد البساتين مع احد اصدقائه من بقايا مائدة كبيرة اقامها احد الافندية لاربعين طاعماً لمناسبة رمضان !

اسند الصياد ظهره على جدار في زقاق يعج برائحة الشواء وراح يجتر تلك الذكرى القريبة . لقد أكل حتى الانتفاخ لحماً وأرزاً ودجاجاً وحلوى وفواكه حتى انه ليتمنى على الله لو أهلكه في تلك الليلة وهو مستلق تحت شجرة الجوز لا يطيق حراكاً .

قال له صاحب البستان : لقد كلفت الوليمة خمسمائة ورقة سورية ! فراح حميدان يضبط حساب الوليمة بميزان حياته . انه ماهر في الارقام ولو كان مظهره لا يوحي شيئاً من المهارة . ان الورقة السورية تكفيه افطار اسبوع كامل ، فأربع ورقات تكفيه لافطار ايام رمضان كلها . وقد تكفي الخمسمائة ورقة لافطار مئة وخمسين فقيراً فاذا استغنى الاغنياء عن خمس ولائم لا يكاد يبقى في دمشق فقير بلا اكل في رمضان . فهز حميدان رأسه عجباً ولم يكن قبل اليوم ليعجب . ثم طافت على وجهه

ابتسامة باهتة فكان ذلك دليلا على انه قلب صفحة على حساب الاغنياء، وطفق يفكر بشيء آخر، ماذا يهمه ان تكفي وليمة احد الاغنياء لافطار مئتي فقير ؟ ألم يقسم الله للناس ارزاقهم ؟ وفيم التدخل بشؤون المنعم الخلاق ؟

ومر ولد يحمل طبقاً كبيراً، انخلعت له عنقه، ففغر حميدان فمه ولبث يلتهم بعينيه هذه الاوراق الحمراء المتفشي فيها السمن. وعندما مر الولد ترك وراءه رائحة دسمة تحلب لها فمه فحاول ان يبتلع ريقه فلم يستطع، واندفع خيطان لزجان على فمه المشتور بادر الى مسحهما بكمه ومضى . . . يمشي .

وكاد حميدان ينسى موعد الافطار، في دوار من اليأس والحور لو لم ينطلق المدفع فجأة، فهب له مذعوراً كأنه انطلق في اذنيه . وكان اول ما وقع عليه بصره المذهول تاج المأذنة المضيء، وشبح المؤذن في عتمة المساء . ثم دوت صيحة الاذان وتواترت التكبيرات من كل صوب، واذا بالشارع يقفر، والعتمة تسود، ودمشق مقبلة معاً آكلة . . . كأن اهليها ضيوف مائدة واحدة في حفلة واحدة .

لفظ المؤذن آخر كلماته وادخل رغيفه في حلقه ثم هبط درج المأذنة . ها هو القوال يأكل باليسرى ويدق الحمص باليمنى ،

ووقف صاحب المطعم امام الباب يصفق بكفيه داعياً الغرباء الى الاكل كأنه يقول لهم : انني اضحي في سبيلكم فلن آكل حتى تشبعوا ! . . وكأن اول ما فكر به المدخن ان اخرج لفافته وراح يدخنها بنهم ، وعثر غلام بماعون « التسقية » فتحطم وسال المرق الابيض فراح يبكي ويعول ، لان اباه وامه واخوته الاربعة ينتظرونه منذ خمس دقائق وقد انداحوا حلقة على ارض الغرفة ، فاذا دخل عليهم بلا تسقية ، قتلوه نحراً بالملاعق ، فأطلق ساقيه للريح . الناس يمرون بالناس بلا سلام ولا كلام ، فبعضهم مسرع ، وآخرون يأكلون وهم يمشون . ويكاد المنصت يسمع صوت المضغ ، وجعجعة الملاعق في الصحون .

شد الصياد حزامه الجلدي على بطنه واندفع الى الامام فخيل اليه انه مصطدم بأول عمود فيقع مغشياً عليه ، ثم وثبت معدته الى نحره وضربت امعاؤه قفص صدره ، وقد كان قلبه يخفق بعنف كأن الموعد قد حان ليطالب بحقه على الجسد .

وحسب انه نجا عندما وقعت عينه على سليمان افندي احد زبائنه فقال له دون تردد : مرحباً سليمان افندي ! أتأمرون ان اجلب لكم غداً سمكاً نهرياً طازجاً ؟ قال الافندي وهو يتظر الترام ليقفز اليه : لم نعد نأكل سمكاً نهرياً .

لم يبق على الرصيف الايمن سواه ، وكان شيخ عجوز يتوكأ على عصاه يقابله في الرصيف الايسر . وعندما اقتربت الحافلة قفز اليها الافندي . اما الشيخ فلم يدركها بعد ان حاول اجتياز الشارع ، فسعل ونفخ ثم عاد يتمتم تمتمة خفية ، وهو يحمل صرة زرقاء لعلها كانت تثقل ساعده الهزيل .

يا رب يا ستار يا حليم يا كريم !

ولاول مرة رفع حميدان رأسه الى السماء ونظر في تيهها الازرق لا شكر فيها ولا حمد .

ولكن لسانه لم ينطق نظره الا بالشكر والحمد عندما غض بصره ثانية :

ـ استغفر الله يا ربي !

انقطع سبيل السابلة ، وران على الشوارع سكون ثقيل ، وقدمت المدينة للغريب الهابط اليها في مثل هذه الساعة ، صورة مدينة هجرها السكان ، وقد يظهر شبح في البعيد ثم يتوارى ، وقد تمر سيارة مسرعة فلا تلبث ان تترك وراء هديرها خواء موحشاً .

. . . وما فتىء العجوز يتقدم ببطء حاملاً صرته الزرقاء متمتماً ، وما زال حميدان يمشي على الرصيف المقابل ، وكان

يشعر بثقل ذراعيه اللتين يطوح بهما الى الامام والى الوراء ، وقد جف حلقه ، وتداعت ركبتاه ، واخذ به دوار الجوع ، وأحس بدموعه تنصرف عن عينيه لتنسكب في حلقه فتكاد تخنقه .

لماذا لا يستجدي ويقرع الابواب ؟ لا أحد يمنع الصدقة عن السائل المحروم عشيات الصيام !

بل لماذا لا يدخل دكان الحلوى فيأكل ما شاء بطنه ان يسع ثم يعلن فراغ جيبه ويسلم نفسه للشرطة ويأكل غداً على حساب الحكومة ؟

لولا حنينه الى أمسيات الصيد الرائعة عندما يلقي الشبكة وينتظرها لتمتلىء ثم يحملها الى المدينة ثم يعود صباحاً ومساء وهكذا منذ عشرين عاماً ، لولا حنينه ، لولا هذا الهوس . . . لولا هذه « السوسة » كما يقول ، التي تنخر في قلبه ، وتملك عليه هواه ، فما كان اسهل عليه ان ينال افطاره في هذه الامسية . وأحس ثانية ان دموعه تنصب في حلقه فيختنق بها .

لقد سبقه العجوز وما يزال يمشي ببطء وتمهل كأنه لا يستعجل الافطار ، ويستمرىء لذة الانتظار ، ويزيد بها نفسه الجائعة متعة . ما يهم ؟ ما دامت الفريسة في جعبته والزاد في

صرته ! ان في حرمان النفس عندما تملك زادها بين يديها ، لشعوراً قد يقوم بنفسه مقام المتعة .

وفجأة عثر العجوز ، فكبا منبسطاً على وجهه ، فسقطت عصاه بعيداً عنه ، وتناثر ما في الصرة ذات اليمين وذات الشمال ، فهرع حميدان نحوه ، وقد اخذت منه الشفقة على الشيخ العاجز ، ونسي همه وألم حرمانه . على انه ما كاد يقترب من العجوز ، فيرى الخبز والجبن والخيار ، حتى جمد في مكانه ولبث يفكر ، بينما كان العجوز يعتمد على يديه لينهض .

ماذا ؟

وتطلع الصياد الى الوراء ثم الى اليمين والى اليسار ، كأنه يتأهب لجمع خيوط الشبكة ، عندما يحس بامتلائها . وبرق في عينيه نور مخنوق ، ثم تشنجت عضلات فكيه ، وبرز عرقا عنقه وصدغيه وتهدلت شفته المشقوقة وتحركت يداه المشلولتان فاختطف رغيفين وقرص جبن وثلاث خيارات وانطلق يعدو في الزقاق الخارج من الشارع نحو البساتين في ضاحية المدينة .

. . . وهناك على بساط العشب الاخضر امام منصة يلقي فيها الناس الاوساخ جلس حميدان القرفصاء بعد ان أمن عادية الطوارىء ، وأخذ يأكل بهدوء وسكون افطاره اللذيذ .

في الناحية الثانيـة من المزبلة كان كلب اسود يعرق بعض العظام وإزاءه وقفت هرة مقوسة الظهر ، منفوشة الشعر تنفخ بوجهه نفخات مهددات ، وترسل في سكون الليل مواء حاداً .

العانس

قصة المرأة فقط !

رسمت «نور» على وجهها وصدرها شارة الصليب ثلاث مرات بورع وذهول ، كما اعتادت ان تفعل دائماً منذ طفولتها اليانعة ، البعيدة البعيدة ، ثم عقدت كفيها واراحت عليهما ذقنها خاشعة مطرقة ، واستغرقت في صلاة وادعة بضع دقائق طويلة .

لم يكن ينير سريرها سوى ضوء خافت ينبعث من كأس مملوءة زيتاً ، فيها عوامة بفتيل شمعة يحترق ، ويبعث هذا اللهب الاحمر الرجراج ، الذي يكاد يكشف للعين ما حوله : ثلاث صور مقدسة ، تتوسطها ايقونة العذراء بحجم الكف او اكبر ، وكانت الصورة الى اليمين تمثل يسوع المصلوب ، تنزف من جنبه دفقة دم ، والنسوة تحت صليبه يبكين ويقرعن الصدور . واما الثالثة الى اليسار ، فكان يحجبها ستار من العتمة المذهبة .

ـ كم انت جميلة يا نور ! في الليل . . . وتحت هذا الضوء

الاحمر الباهت ! اكاد ارى في عينيك شبهاً بعيني العذراء .

واستمرت نور تصلي . فهي وان دخل عليها هذا الصوت الخافت المنبعث من زاوية الغرفة كقصفة رعد ، فلم تشأ الا ان تتم صلاتها ، بلا التفاتة . وعاد الصوت يموج السكون الثقيل .

ـ الا تتكلمين يا اختاه ؟ ولماذا تجمدين هكذا ؟

ثم انطلقت ضحكةٌ طفلةٌ حلوة كأنها زقزقة كمان تحت دغدغة قوس سحري . وكانت نور تختم صلاتها برسم شارة الصليب ثلاث مرات ، فالتفتت نحو السرير المحاذي لسريرها في زاوية الغرفة وقالت بدون تذمر :

ـ لماذا لا تنامين يا عفيفة ؟ وما معنى هذه الملاحظات الباردة ؟ نامي يا حبيبتي نامي . ثم لماذا تتركين الضوء مفتوحاً ؟

وبعد ثانية صمت : هل صليت صلاة النوم ورسمت شارة الصليب ؟

وانطلق الصوت العذب ثانية من الزاوية التي ينيرها ضوء كهربائي ازرق ادكن : اوه . . . صليت نعم يا اختي ورسمت شارة الصليب . ولكنني لست مثلك . انك تصلين كأنك نائمة او منومة . قولي هل رأيت فيلم « الحلم » لاميل زولا في السينما ؟ انك تشبهين بطلة الرواية .

ـ انت مزعجة يا عفة . اتريدين ان اشكوك الى الماما ؟ ثم كيف ذهبت الى السينما ومتى ؟ لو تدري امك !.. وما معنى هذه الوقاحة ؟ كيف تقولين لي انك في السينما ؟

ـ اوه ... كيف كنت ؟ لا تسألي . لا تكوني ظالمة مثل الماما . لقد اعطتنا الرئيسة فرصة بعد الظهر لمناسبة عيدها فقضيت الوقت مع انطوانيت في السينما . ثم ... ليست هي المرة الاولى .

ـ عفة ، ماذا تقولين ؟ افي مثل سنك تذهب الفتيات الى السينما ؟ وسرقة ؟ ومع انطوانيت الفتاة الطائشة ؟

وساد سكون ثم انتفض صوت الطفل وفيه نبرات نفس تنضج .

ـ آه ... للمرة الاولى اراك تصلين بمثل هذا الذهول العجيب . انني اراك في قميصك الابيض تحت هذا الضوء كقديسة من القديسات . اود ان اعانقك .

ـ اطفئي النور يا عزيزتي . نامي يا عفة نامي .

ـ كلير ... اختي .. اريد ان اقول لك شيئاً .

ـ لو سمعتك امك تنادينني كلير ... لقطعت لسانك . وليس الآن وقت الكلام . ارسمي الصليب ونامي .

واز السرير ازيزاً مسموعاً وراح جسم الفتاة يخفق فيه ويتململ . وعاد صوت الاخت الكبرى يقول :

ـ أسمعُ وقعَ اقدام أُمك . نامي .

اذ ذاك فتح الباب ودخل شبح الام في ظلام الغرفة المنورة بضوء الكأس الزيتية مقابل السرير . وكان منظر الام يذكر بمديرة ظالمة في مدرسة داخلية . قالت وهي تقف فوق سرير الصغيرة :

ـ اسمع صوت التخت يتحرك . من يبقى مستيقظاً في مثل هذه الساعة ؟

ثم مشت نحو رأس السرير الصغير ورفعت صوتها بشيء من الحدة : انت ؟ . . انت يا عفيفة تنامين وتتركين ساقك وفخذك خارج اللحاف . تأخذين البرد ونحن ندفع للطبيب ونسهر الليالي ونبكي بالدموع . قلت لك الف مرة عندما تنامين لا تتركي ساقك الملعونة خارج اللحاف كحية خارجة من قميصها .

ثم ازدادت الام عنفاً وصاحت : ساقك هذه اكسريها . . . ادخليها تحت اللحاف . . . ألا تخجلين ؟ غرفة مملوءة بصور القديسين ! . .

وقرصت الساق البضة الخارجة تعانق اللحاف وادخلتها بعنف وهي تكرر : اكسريها ، هذه الساق . . .

وصاحت الابنة : اخ . . . وتململت في الفراش وظلت متناومة .

عندما خرجت الام واحكمت اغلاق الباب وراءها انتفضت الابنة في السرير واستوت قاعدة وراحت تنادي اختها همساً .

ـ كلير . . . كلير . . . نور . . . هل تنامين ؟

فاتى صوت من السرير المقابل : اش . . . اش ش ش . . .

ـ نور ألا ترين ؟ لقد قرصتني قرصة اودعتها كل ما فيها من عزم وسم . انني لا احبها ، لا احبها . انها جاسوسة وليست اماً .

ونهضت الاخت الكبرى في سريرها وقالت :

ـ ما بك الليلة يا عفيفة ؟ انت مجنونة . لقد ازعجتني وطيرت النوم من رأسي . اف . . .

ـ مجنونة نعم . . . انك تكرهين الماما كما اكرهها انا . ولكنك صبورة . . . صبورة ولا صبر ايوب . ولا صبر الجمل .

ـ ثرثارة ، كفاك كلاماً .

لقد ارادت الاخت الكبرى ان تستدرك بآخر ما تبقى لها من هيبة ووقار ، فخانتها قواها وادركت ان هذه الثورة الحلوة التي ترقص في نشوتها عفيفة المرحة ، الوقحة ، بدأت تفعل

فعلها في نفسها هي ايضاً .

ـ انا اعلم كم تعانين من غطرسة امي وشراستها . انا اعلم كم تتألمين اذ تقضين نصف نهارك في المطبخ والنصف الآخر وراء آلة الخياطة ! انا اعرف كيف رفضت الماما قديماً ان تقص لك شعرك فتركت هاتين الجديلتين تسرحان فوق ظهرك كذنبي فرس ! هه ! اما انا فقد اجبرتها المعلمة على قص شعري ، كما تعلمين .

ـ كفى هذراً اقول لك يا ابليسة .

ـ . . . وانا ارى كل يوم صدارك المرقع . . . هذه القطعة من القماش الازرق السميك . ان البابا ليس فقيراً ، اليس هكذا ؟ ثيابك ، ثيابك كلها من الداخل ـ خام بخام ـ تلبسها الخادم ، لو كان عندنا خادم . ثم انا ادري لماذا لم تتزوجي . . .

وكانت هذه الصفعة قوية . فمادت لها الاخت الكبرى . ولكنها تجالدت وقد جرحت كبرياؤها فخبطت بكفها على حافة السرير وقالت متوعدة :

ـ اخرسي والا قمت فنهشتك باسناني يا قليلة الادب . . .

ـ نور ؟ . . انت صخرة ، انت حجر . انا اعلم انك ضربتني عدة مرات بوحي امي وانك صرت مثلها على طول الايام قاسية

شرسة .

– لا يعنيك امر زواجي . انت طفلة ولا تفهمين . . .

– لا ، لست طفلة ، مع هذه الليلة سأتم السادسة عشرة . الليلة ليلة ميلادي وغداً عيدي . لا يغطن بي احد . لا كلمة حلوة ولا هدية ولا سهرة ، اترك عاماً مضى فلا يودعني احد ، وادخل عاماً جديداً فلا يستقبلني احد ، انا مقطوعة غريبة ، انام مبكرة مع الدجاج ، واعيش كما يقولون بين عقربي الساعة . . .

كانت الاخت الكبرى تبكي آنئذ ، وكانت تحجب وجهها عن الضوء فلا ترى اختها سوى شبح رأسها الاسود .

– ألا تتكلمين كلمة واحدة ؟

واصلحت الاخت الكبرى ما استطاعت من نفسها المهدمة الحزينة ومسحت بكفها عينيها لتدير نحو الصغيرة وجهاً بارداً كالجليد جامداً كالحجر وقالت : نامي الليلة ، وساكلمك غداً ، غداً عندما تذهب امك لصلاة الصباح . . . قالت هذا وعضت على شفتيها قابضة باسنان حادة على الم يكاد يخرج عويلاً ودماً على وجهها الذابل الممرغ بالشقاء .

لقد استفاق الالم المسجون باثواب العفة في قمقم هذا الجسد

الصدىء . استفاق بعد هجعة طولها في الزمان خمسة وثلاثون عاماً ، تحت هذا الصليب المشبوحة عليه اعضاء ابن الانسان . حقاً لقد استفاق الالم ، ومتى ؟ فويل لها !

ـ كنت اريد ان اكلمك في عيد ميلادي غداً ، ولكن ما الفائدة ؟

وظلت الاخت الكبرى صامتة تعض على المها ، واي ألم ، هذا المارد المضغوط في قمقم الجسد الصدىء ! ها هو يستفيق فتتمزق له اوصال الحديد ويطل من عينين وشفتين اطبقتا منذ الازل . ولم تستطع الاخت ان تكبح اعصار اجهاشة تهدد صدرها . فارتمت على الوسادة وكتمت فضيحة نفسها باللحاف وكانت تلهث كمحمومة هامسة في سرها : إلهي . . . إلهي لماذا تركتني ؟

ـ ما الفائدة ان اكلمك في عيدي غداً ، فقد لا يكون لي غد ، نعم كنت اريد ان اقول لك منذ اسبوع ، ساقتل نفسي .

. . . وكادت نور آنئذ تثب من فراشها مذعورة ، ولكنها ظلت ضاغطة على عنقها بيديها ، دافنة اضطرابها ، متناومة ، وقد بدأت تطلع على هول السر ، ذاك السر الذي يصرخ عالياً من الزاوية المقابلة في السرير الثاني .

ـ اتنامين ؟ ساقتل نفسي ، طبعاً انت لا يهمك ان اقتل

نفسي . يا للقلب الاصم ! ساقتل نفسي . ولخير لي ان اموت في النهر غرقاً مثلاً من ان اموت مثلك في المطبخ وبين رقع الخام الغليظ .

وارهفت الاخت الكبرى اذنيها لتتلقى النبأ الذي تتوقعه ، وصرخت الاخت الصغرى :

ـ أُحب . . . أحب ، انني احب ، هل سمعت الآن ؟ فاذا لم اعانق هذا الحب بكل ما فيَّ من قوة . . . لا اعيش ، ولا ارغب في العيش ، ساقتل نفسي او اهرب معه ، ألا تسمعين ؟

وعندما لم تسمع جواباً قفزت من سريرها وراحت ترتمي على اختها وتهز كتفيها مرددة :

ـ انت لا تنامين ، انت متناومة . . . كلميني ، قولي .

قالت الاخت الكبرى همساً وقد تلاشت قواها ، كأن نزفت من جسدها آخر نقطة دم :

ـ من هو ؟

وهنا التقى الوجهان الدامعان ، تحت خفقات النور النضاض وهمست الاخت الصغرى : فريد . . .

ـ كيف ؟ فريد ! يا لاسم مريم ، وهل يستطيع ؟ وكيف يعيش وهو لا يزال بعد تلميذاً ؟

ـ لا ادري .

ـ أتهربين معه ؟

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ عندما يريد .

ـ أيحبك !

ـ حتى الموت . يموت معي او نعيش معاً . فكم يردد لي ذلك ؟

... وساد سكون وازداد الهمس خفوتاً :

ـ وهل تعارفتما منذ زمن ؟

ـ منذ عام .

ـ اهو الذي كان يعطيك الورود التي كنت تخبئينها تحت صدارك حتى تذبل ؟

ـ هو بنفسه .

ـ ماذا يقول لك ؟

ـ لا شيء . ومنذ اسبوع بدا جريئا .

ـ هل قبلك ؟

ـ اجل .

ـ اين ؟

ـ من جيبي دائماً ومن كفي احياناً .

ـ وكيف اتفقتما ؟

ـ لا ادري .

ـ واين ستمكثان ؟

ـ لا ادري .

ـ لماذا لم تقولي لي ؟

ـ كنت اخشاك .

ـ والان ؟

ـ ابداً .

ـ لماذا ؟

ـ لانني رأيتك تتألمين هذا المساء بينما كنت تصلين ورأيت في عينيك اشعاعاً كأنه آخر ومضات الحياة . لا ادري ماذا جرّأني عليك !

ـ اكفى . . .

ـ ومنذ ثلاث ليال ، كنت اسمعك تبكين وانت نائمة . وهذه الليلة دعاني قلبك اليك من حيث لا تشعرين . وكان له فم وعينان ، ونطق وبيان .

ـ عفة . . . عفة . . . لا تزيدي .

ـ ما كنت اود ان يجري كل هذا بسرعة . وعندما شاهدتك الليلة احسست انني مثلك سادرج اكفاني حية . كيف ذلك ؟ لا ادري . لقد كنت ارى الالم معكوساً عليك شبحه ، مما لا يطيقه بشر مثلي . انا شقية . انا بائسة . ساهرب او اقتل نفسي .

ـ عفة . . . ان الكلام يزيدك اضطراباً . . . اصمتي .

ـ اواه ! كيف ذلك . اسمعي . عندما اذهب اترك لك هذه الصورة وما عندي شيء اتركه لك سواها . صورتي مع فريد . لقد التقطت لنا الصورة انطوانيت بآلتها الصغيرة .

ووضعت عفيفة الصورة تحت خد اختها التي اغرقها الذهول فاطبقت جفنيها على دمع ساخن وسجت نفسها بلا حراك .

ـ نامي الآن . . . وسأنام .

وقفزت الفتاة الى سريرها وانطوت على نفسها طياً تحت لحافها .

بعد منتصف الليل قبيل الصبح رأت نور حلماً غريباً . لقد رأت اختها عفيفة تنام نوماً هادئاً وقد خرجت فخذها الغضة كما جرت عادتها ، لتعانق اللحاف ، ثم ما لبث السرير ان

تململ فتحرك ، فارتفع في فضاء الغرفة متجها نحو النوافذ . وما لبثت النوافذ ان انفتحت على سعتها ، وانزاحت الستائر بلطف ، وخرج السرير الابيض متهادياً في الفلك الازرق ، وعفيفة لا تزال تنام دائماً . فصاحت نور من اعماقها وهي تجهش :

ـ عفة . . . عفة . . . أتتركينني وحدي ؟ أبهذه السرعة ؟ عفة . . . عفة ، خبئي ساقك تحت اللحاف ، ان الليلة باردة ، والجو ماطر . . .

وانتفضت نور من نومها فاذا بعفة تنام ، والفتيلة العائمة في الكأس تنازع الموت تحت قدمي المصلوب ، والنسوة حوله يبكين ابداً ويقرعن الصدور . وعندما انطفأت الذبالة ، وغرق رأسها المحروق في الزيت الحار ، ساد غرفة الاختين ظلام رهيب .

ملاك الموت

صورة من الحياة الريفية

خرجت سميحة ، واغلقت وراءها باب الدار الخارجي اغلاقة حذرة . وما ان احست بالهواء البارد يسفع وجهها في الزقاق ، حتى اسدلت نقابها ، وطوت الطفل تحت ملاءتها واسرعت . اسرعت ، انها تحس بشيء من الوحشة والذعر ، فلم تغادر البيت منذ اسبوعين . وكادت تشمر وتهزم . اين الناس ؟ هل صقعوا ؟

كان الزقاق مقفراً ، تصفر فيه الريح والبرد يحيل مياه المطر في الحفر الوسخة مرائي عكرة من جليد . وكانت السماء تظهر مربدة مكفهرة فوق الزقاق الضيق الذي تكاد بيوته تتعانق على الجانبين . على ان الريح العاصفة ما فتئت تمزق متراكب الغيوم هنا وهناك ، فلا يلوح للمرأة الناظرة الى بقعة الجلد فوقها ان هذا النهار غائم ماطر ، وكأنها اطمأنت الى صحو موقوت ،

اخرجت من جيبها ورقة بقدر الكف ، نظرت اليها بقلق ثم ما لبثت ان طوتها في كفها حريصة ، وتريثت في مشيتها فوق الارض الموحلة هنا والمجلدة هناك بينما راحت تغمغم كلاماً غير مفهوم كأنها تلعن البرد او تصلي وسارت في اتجاه الصيدلية القريبة .

لم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت تفكر ولاح عليها انها ستعود ، عندما التفتت نصف التفاتة ، لكنها استأنفت السير بخطوات بطيئة . انها تفكر الآن بوجه الصيدلي الاحمر المقشور كأنه أليتا قرد ، يرسل نحوها عينين زرقاوين صغيرتين زجاجيتين ليقول لها ، وقد خرج من فمه ما يشبه ريح مسحوق ازالة الشعر : اين ثمن الدواء ؟ ألا تعرفين انني لا ابيع بالدين ؟ فماذا تقول له ؟ وهبطت على جبينها غمامة كئيبة وغدا وجهها كأنه شيء من هذا النهار المكفهر ثم التهمها تفكير ساحق ، ولم تعد تطيق قدماها الحركة . ماذا تقول لزوجها ؟ وكيف تعود اليه بلا دواء ؟ . . وكيف تقف امام فراشه ثانية ، وهو يسبل على اللحاف يدين صفراوين ، لم يعد يشير الى وجود الدم فيهما سوى عروق زرقاء نافرة في هزال مخيف ؟ أيعذرها اذا علم أن ماله في ذمة صاحب العمل لم يقبض بعد ، ام يقفز نحوها

من فراشه بعظامه البارزة وجمجمته الصفراء ليعتصر روحها في عنقها ؟ ثم كيف تثبت امام نظرات عينيه الغائرتين اللتين يحضنهما هلال من اثمد ازرق كفرخي افعى ، هاتين العينين اللتين ترقبان . وترجوان وتهددان معاً ؟ رباه . . . انها تخافه وتخشى عينيه ، ولا تطيق النظر الى يديه . انها لا تزال ترى في عينيه ويديه صورة ذاك الرجل القوي الغليظ عندما ينهال عليها بالضرب وينفلت نحوها بالشتم واللعن فلا تلبث ان تزداد حيرة وتبهم عليها عواطفها بين الشفقة والغضب ، والجرأة والجبن . ولكن وجه الصيدلي الاحمر المقشور يطل بين هاته الصور لينفخ في وجهها هذه الكلمات : ألا تعرفين انني لا ابيع بلا نقد الثمن ؟ ثم تمشي مسرعة كأنها وجدت المخرج من مأزق الحيرة فما تكاد تسرع قليلاً حتى تقف ثانية ، مطرقة كأنها تفتش عن مفقود لها في الارض الموحلة . ونام الطفل تحت ملاءتها ، فكانت تشعر بانفاسه السريعة تذيع في صدرها حرارة حلوة منعشة ، بينما يشتد هزيم الريح ويدوي صفيرها في منفرجات الزقاق الرطب .

عندما دعتها صاحبتها القديمة رفيقة ان تدخل لتشرب معها القهوة ، لم ترفض مع انها لم تنس السبب الذي غادرت بيتها

من اجله . بل قبلت الدعوة مسرعة كأنها تهرب من مدرك لها آخذ بذيولها ، فاندفعت وراء هذه الصدفة كما تندفع الاخشاب نحو الشاطىء ، بعد ان تقاذفتها مناسم الموج . لقد دخلت البيت كأنها تفتش في حمى صاحبتها عن مخرج لها من الحيرة ، فألفت نفسها في دائرة من النساء يتربعن حول الموقد ، يشربن القهوة ويصغين الى امرأة من النور ، تنشر بين يديها اصدافها البيضاء والسوداء ، ما تني تتحدث عن البخت والمستقبل والزواج والسعادة ، فسرعان ما القت ولدها النائم في زاوية وانخرطت بعيداً في الحلقة . لقد كان الجو دافئاً معطراً برائحة البن المحمص ، فأنست اليه ، واستسلمت في لغط الثرثرة والضحك الى ضجة تحملها عن نفسها الضعيفة التي خرجت بها منذ دقائق من غرفة زوجها المريض . ولكي تزيد نفسها طمأنينة خلعت معطفها الاسود وعلقته على مسمار في الحائط ، ورسمت على شفتيها ابتسامة تلميذ ، دخل الصف لاول مرة . لقد كان وجهها شاحب اللون ، شارد النظرات ، مما دعا النسوة وكلهن صويحبات لها قديمات الى الضحك منها والسخرية من اهمالها نفسها . فهذه انبتها على احتجابها وتلك على خسة تزينها وتحمرها ، وضربتها كف على كتفها ، واخرى دفعتها ، ومدت احداهن يدها فقرصتها في فخذها قرصة

عنيفة ، تصاعد لها دم وجنتيها ورقصت في عينيها شعلة خابية ، القت على وجهها نوراً من الرونق المحفوف بالحياء والدهشة . وكان الدفء قد دب في اوصالها ، فنسيت هواجسها وهمومها وبدأت تشغفها لذة مفاجئة ، لذة اكتشاف الغيب ، ومعرفة المستقبل وسماع احاديث الغد . ولعلها انتشت بسعادة ان تحس بان لها مستقبلاً ينتظرها ، وامنية ما تترقبها ، ما هي ؟ تود لو تنطق هذه الاصداف الجوفاء ، او تشير جدران هذه الفناجين البيضاء التي خططتها القهوة ، ورقشتها برسوم واشكال غريبة .

قالت لها صاحبة الفنجان ان شبحاً اسود ملقى في قعر الفنجان . . . هو مريض على الارجح . وقالت لها ان هدية ستهدى اليها ، ورسالة ستأتيها ، وجمعية تعقد في بيتها . . . وطريق سفر . . . ويوم نكد تمر به . . . ودموعاً . . . وفرحاً . . . والعاقبة خير ! وانتهت صاحبة الفنجان بضحكة وضحكت النسوة ، واطمأنت نفس سميحة الى هذا الجو المرح ثم خاطبت ربة الدار النورية الوسخة المتكومة في عتبة الغرفة بين الاحذية ككلب غريب : ارمي صدفاتك لسميحة يا اختي ، لنرى بختها . وما كادت الزوجة تسمع صوت الصدفات الفارغات العاريات ، الملساء ، تقرع الارض حتى سرت في جسدها قشعريرة ، وانصبت عيناها

على يدي النورية الموشومتين بالخطوط الزرق ولبثت تصغي .

قالت النورية بعدما صبت اصدافها من قعب خشبي ثلاث مرات متواليات :

ـ ياست . . . ياست . . . أرى عجباً . . . اسمعي ياست . . . ان آخرة حياتك احسن من اولها . . . ستتزوجين ثلاث مرات . . . وترزقين سبعة صبيان وابنة عوراء . . .

فقاطعت النسوة بالضحك ، وخنق الدم وجه سميحة التي كظمت شفتيها على شيء هو بين الابتسامة الفرحة والاجهاشة المحتدمة . فيا لها من وقحة ! تتزوج ثلاث مرات ؟ ما معنى هذا ؟ لقد قفزت الى وعيها المخدر صورة المريض بسحنته المخيفة وصورة الصيدلي بوجهه الاحمر المقشور ، ولم يبق وراء هذه الصور الا الذعر والاضطراب ، وارتجاف الانامل عندما استأنفت النورية نبوءاتها :

ـ لك حظ من الرجال يا ابنتي . . . والاقارب لك كالعقارب . ان حسن نيتك افضل من قوتهم . وقدرة الله فوق قدرتهم . . . قولي ان شاء الله .

وضحكت السيدات وغمغمت سميحة : ان شاء الله !

ثم قالت النورية وقد رمت اصدافها للمرة الرابعة وراحت

تشير الى ثلاث صدفات سود ، تشكل مثلثاً : ارادة الله فوق الجميع يا ابنتي . . . قولي ان شاء الله . انت محسودة على سعادة لا تملكينها ، مأكولة مذمومة . ومن اولادك تونين الخير . قولي ان شاء الله . وعندما ألقت الصدفات هذه المرة كانت عينا النورية تجحظان ، ويداها تختلجان ، فراحت تصيح بالمرأة المذهولة : زكي يا ابنتي . . . زكي والا احترقت معك . وكانت حالة التشنج التي اصابت النورية قد رمت الذعر في الدائرة ، فاضطربت لها النساء ، ورجون سميحة ان ترمي للنورية شيئاً ، وكانت سميحة لا تملك الا فرنكين في جيب صدارتها فأخرجتهما باصابع مرتجفة وألقت احدهما بين يدي النورية التي راحت تلهث كأفعى محمومة ولبثت تصيح : زكي يا ابنتي ، زكي والا احترقنا معاً واحترقت الدار . فرمت الزوجة بالفرنك الثاني وقد قلص وجهها الذعر وظلت المنجمة تصيح : زكي يا ابنتي . . . زكي . . . ثم شهدت النساء فتيلة من الخرق بقدر نصف ذراع تحترق ويخرج منها لهب كأنه احتراق البارود فولولن ورحن يلقين في العتبة بين يدي النورية قروشهن وفرنكاتهن وهي تردد : زكي يا ابنتي . . . زكي والا احترقنا كلنا . ثم التهمت النار الفتيلة ، ولبثت على الارض رماداً بعدما نشرت في الجو رائحة

كربة وهدأت النورية وراحت تجمع قطع النقود وهي تبكي وتقول : يا ابنتي . . . يا ابنتي ، اواه يا مسكينة ! ان ملاك الموت سيدخل دارك ويخرج حاملاً بين ذراعيه شيئاً . الله وحده الستار . . . قولي ان شاء الله . ولملمت النورية اذيالها ، وافرغت اصدافها في كيس ازرق وخرجت من الدار راكضة والنسوة جامدات في اماكنهن بلا حركة وقد عقد الذعر وجوههن الحزينة .

كان المؤذن في المأذنة القريبة من البيت يعلن الظهر عندما عادت سميحة بقارورة الدواء ، فدفعت الباب وصعدت ركضاً في السلم الخشبية المخلوعة درجاتها . وعندما دخلت غرفة المريض كان ينام وامه الى جانب رأسه تبكي . قالت سميحة لاهثة : كيف احمد الآن ؟ فلم تجب العجوز وعجلت بنظرات حادات صفعت بها كنتها . وأردفت سميحة : يا ربي . . . ان الصيدلي لم يسلمني الدواء بلا ثمن ! ثم وضعت يدها على قلبها كأنها تستعيد انفاسها المتسارعة وقالت : استدنت ليرة سورية من اللحام توفيق . . . على امل ان يسلمنا ابو حسن ما تبقى من اجور احمد . فتململت العجوز لتدل على انها غير قانعة ووضعت يداً

على يـد وعادت الى اطراقها فوق رأس ابنهـا ، وزمت شفتيها اللتين بدتا كحافة كيس مشدود من الداخل ، تلك هي شارة التذمر والغضب .

أطرقت سميحة كـطفل ذليل ، ثم فطنت فجأة الى وجود ابنها على ساعدها فحسرت عنه الملاءة ، ونظرت اليه نظرة مشفقة كأنها لم تره منذ ولد . ثم راحت تتحسس قدميه الباردتين ، وصدره النازح عرقاً غزيراً ، فوضعته على الارض ، وتركتـه يبكي ، بينما خرجت لتحضر له قطعة من الخبز .

قبيل الغروب ، استفـاق المريض من ذهوله ، وراح يجيل في الغرفة نظرات غريب عن الدار مستوحش ، فبادرته الزوجة بلعقة كبـيرة من الدواء ، سمع لازدرادها في حلقـه خشخشة امعاء جافة . لقد كان مصاباً بالتيفوئيد . وأخذت تشتد عليه وطأة الحمى ، فراح يهذي ويهدد . انه يود ان يطير . . . ويأكل . . . ويشرب . . . ويمزق بطن امرأته بخنجر . . . قبل ان يموت . آه يا عاهرة ! . . هل تتزوجين بعد موتي ؟ وخيل اليه انه قادر على النهوض ، فرفع رأسه ، وهوى به على الوسادة ، فكادت تنخلع عنقه . ان عنقـه هزيلة ، كعنق صوص منتوفة الزغب . وتذكرت الزوجة ما قالته النورية من انها ستتزوج ثلاث مرات ،

فراحت تبكي وتقول لنفسها وعيناها مغرورقتان : ليتني اموت قبلك يا احمد . . .

لقد كانت تحبه . انها تحبه دائماً . وتزوجته بارادتها ، وبعد ان رأته وعرفته وحدثته ايضاً . ان صدفاً هيأت لها التعرف اليه ، انه نجار بارع ، وشاب قوي وجميل ، وبامكانها اليوم ان تنسى غلظته وقسوته في معاملتها . فمن الطبيعي ان يضرب الزوج زوجته . انها تحبه . وهو يفكر بموته وتركه اياها تتزوج من دونه رجلاً آخر . مسكين انه يتعذب . كيف تقنعه بانها ارصدت حياتها وحبها له ؟ ودون ان تشعر ألفت يدها تمر على جبينه ووجهه ، بينما عيناه الغائرتان تحت السراج الداخن الزجاجة تحدقان بشره ورجاء الى وجهها المخطوط بالدموع . لم تكن الحمى في ساعة الشدة والعنف لتفقده صوابه . وانه ليصحو في فترات ما صحواً غريباً فتعود الحياة الى عينيه الغائرتين . ثم مد يده الثانية ووضعها فوق يدها . وكأن هذه اليد الدافئة الموارة بالحياة ، نقلت اليه دفئها وحياتها فرانت على وجهه طمأنينة ناعمة ، فأطبق جفنيه ونام . كذبت النورية الدجالة ، ان ملاك الموت لن يدخل هذه الدار ! . . ان الزوجة المسندة رأسها الى طرف وسادة زوجها ، استمدت من طمأنينته ، طمأنينة وارفة

كريمة . فستبقى الى جانبه وتحرسه .

في نصف الليل ، عندما اندست في فراشها لتنام الى جانب طفلها احست به لا يزال بارد الاطراف ، يتزح جبينه وصدره عرقاً غزيراً ، فضمته الى صدرها بكلتا ذراعيها ، وجربت ان تنام . ولا تدري هل نامت ام لا . . . عندما وثبت مذعورة والطفل يسعل سعالاً حاداً قالت له : نم يا ابني . . . نم . . . نم يا حبيبي ودعني انام . . . وزادت رقة وحنواً في احتضانها اياه . على انه ظل يبكي ويسعل . ان قدميه باردتان كالجليد ، وصدره ملتهب كالموقد ، وجبينه ما يزال ينفض عرقاً غزيراً ، وكانت دموعه تسح بكثرة دون ان يقوى على فتح جفنيه ، ثم اخذته نوبة سعال قوية ، انتفض لها صدره وارتجت امعاؤه ، فدب الدفء في اطرافه وغدا بعد بضع دقائق كحجر ألقي في فرن ، حتى اكتوى بحرارته صدر امه . وخفق لسان السراج خفقات متتاليات ثم انطفأ وقد امتلأت الغرفة الباردة برائحة النفط والقطن المحروق .

وعند الصباح كان الطبيب الذي قدم للاشراف على مريضه وجاره يقول للأم : انقلي الطفل الى غرفة ثانية ، لقد سممه جو هذه الغرفة . . . افتحي النوافذ مرة في النهار . اعتني بالطفل

ودفئيه . ان احدى رئتيه مصابة . عليك بالحمية والمداراة . . . وبعد ان تأمل طويلاً في وجه الطفل الآخذ بالذبول ، هز رأسه وانصرف .

من كان يرى الزوجة بعد اربعة ايام مرت على مرض بكرها وثمرة زواجها الاولى ، كان يرى الى أم مهدمة بائسة ، تروح بين فراشين وتبكي بين مريضين وتعيش قلقة منكودة بين غرفتين ، ما تكاد تستقر في الواحدة حتى يهيب بها الشبح الممدود في الغرفة الاخرى . فلم تعد تنام الا كما ينام الانسان في حلمه . ولم تكن تتذوق الا الماء والخبز اليابس . ولقد زاد في قلقها وذعرها انها اصبحت تردد في كل وقت ما قالته النورية الساحرة الماكرة ، عندما اشتعلت النار امامها وكانت تصيح : زكي يا ابنتي . . . زكي . . . ان ملاك الموت سيدخل دارك وسيخرج حاملاً شيئاً . لم يكن مرض زوجها فيما مضى ، يوحي اليها بمثل هذا الذعر القائم الحامل الى قلبها شعوراً نبياً يكاد يهتك لها الستر عن مجهول الغد ! وأي مصيبة افدح من ان تتوقع المصيبة كل يوم وكل ساعة ؟ ان ابنها مريض محموم مهدم الصدر ، يسعل سعالا جارحاً ممزقاً . هذه حقيقة لا يمكن الاغضاء عنها اذا كان بامكان الامل ان يحملها على تكذيب

قول النورية . ولم تكن تجد في يدها من وسائل النضال بوجه هذه الاوهام المدوية في صدرها الصارخة بوجهها الا ان تنتقل من غرفة الى غرفة بين ساعة وساعة ، مسرعة لاهثة كأن وجودها فوق رأس مريضها سينقذه ويصد عنه الغوائل . وقد كان من اكتسابها هذه القناعة ما ارهق جسمها وقرح جفنيها واثلج صدرها وقوّى عزمها معاً ! فلم تعد تشعر بالجوع ولم تعد تلذ النوم . انها تتغذى من هذه القناعة المحسنة ، اذ تشعر ان رأس مريضها بين ذراعيها ، وانفاسه على وجهها ، وازّاته في سمعها ، تبلّد حلقها ونفضت عيناها ذبول النعاس ، فكأن فمها ما عرف الطعام ، وعينيها ما تعوّدتا النوم . وغدت تشعر بنشاط غريب ، لا يأتي بمثله امتلاء المعدة ، وكفاية الحواس ، فكانت اذا اغلقت الباب على مريضها لبثت تنظر اليه من ثقب المفتاح نظرة حذر ، ثم تمشي على سطح غرفة متداعي الاخشاب ، لتصل الى الغرفة الثانية حتى اذا لبثت فيها وقتاً خرجت لتوصد الباب ثانية ولتنظر من ثقب الباب وجه المريض المطمئن الى انها ستعود دائماً . لقد كانت تعود دائماً وهي التي تشعر بان الحياة الخافقة كالورقة الصفراء في هذا الصدر المكدود ، انما تستطيع ان تدعمها بحركة او بكلمة او بنظرة . وقد كانت تخرج ، وتدخل ،

وتتحرك وتضطرب بقدر ما تحس ان كلام النورية صحيح ، وبقدر ما تعتقد ان حركتها ستقف دون سكوت الموت . أصحيح انني استطيع انقاذ ابني وزوجي ؟ أصحيح ؟ ومن كان يطرح عليها مثل هذا السؤال ؟ واذا ما اغمضت عينيها نصف اغماضة في ساعات الاعياء الثقيلة بعد نصف الليل ، تحس ان السماء عهدت اليها بعمل جليل .

منذ يومين بدأ الزوج يفقد وعيه . قال الطبيب ان المريض يدخل في اخطر مراحل المرض . اما الطفل فقد لف صدره الصغير بالاقمشة الحارة حذراً من ان تصاب الرئة الثانية . انه يبصق دماً وكان اذا بكى سالت دموعه دون ان يسمع صوته ثم جفت دموعه ، فصار بكاؤه صورة من الالم الملجم على وجهه الشاحب الذاهب . لم تعد الصلة التي تربط هذه المرأة بمريضها الا العيون التي تفتح وتغلق بذهول واعياء كما تطل شمس الشتاء قبيل الغروب اطلالة خفية قبل ان تبتلعها الغيوم والغروب . وكانت الساهرة الدائمة اذا اخذتها سنة من النوم غالبة انتفضت مذعورة كأن روح المريض قد خرجت من كفها الامينة وساعديها الحريصين . ان الله اذا اغمض جفنه حدثت الزلازل ، واذا نام ثانية اطبقت السماء على الارض . كذلك هي انها شيء

من تلك العزة الالهية الساهرة ابداً المسؤولة عن كل شيء . ثم تروح وتغدو وتذرع الدار الواسعة بين الغرفتين كأنها الملاك الحارس على موعد مع ملاك الموت . واحياناً كانت تنهار فيها مقاومتها الجبارة وحرصها العنيد ، فيتخاذل ايمانها وتضعف حماستها فتستسلم لارادة الموت وتعود تخاطب نفسها : اذا كان ملاك الموت سيأخذ احداً فأي المريضين يجب ان يأخذ وأيهما أُعطيه ؟ انها ساعات العذاب المرير . كيف تختار . . . وكيف تعطي ؟ انها تُصلى عذاباً جهنمياً لا تطيقه قوى الانسان . أبامكانها ان تختار للموت احد المريضين ، فترفع يدها عن الواحد لينجو الآخر ؟ رباه ! لا بد لملاك الموت من ان يطرق الباب والا كيف عرفت النورية ان زوجها مريض وما معنى ان وحيدها غدا مريضاً ايضاً ؟ وكان يخيل اليها في ساعة بعيدة من الليل اذا ما نام مريضاها ، وسادت الوحشة خرابة الدار ، انها هي نفسها التي تختار لا ملاك الموت . فتروح مكثرة من روحاتها وغدواتها بين الغرفتين كأنها تمانع عن نفسها ذاك الاختيار ، الذي ستمانع عنه بالوقت نفسه ملاك الموت .

في ليلة عاصفة ماطرة شديدة الزمهرير أوت المرأة الى

غرفة الزوج بعد ان نالها من الاعياء ما لم يعد بوسعها الا ان ترزح تحته لتستريح فأوصدت الباب باحكام ، وأرخت الستائر ، وجلست القرفصاء على الارض تحت قدمي زوجها مرخية رأسها الثقيل بين ركبتيها وراحت في ذهول كأنه النوم الذي لا قيامة منه . كانت اوهامها تتجاذبها بين الرجاء الكبير واليأس المرير فتحاول نسيان حاضرها باسترجاع ما لذّ من ذكريات ماضيها وطفولتها فلا تجد الا الحياة الغضة والانس المرح والطفولة الضاحكة والرجاء المستبشر فتنسى وتسلو وتسري في جسدها المرهق ارتعاشة النبتة الصادية اذا أهاب بها ندى الفجر وتود لو تستسلم الى اناشيد هذه الذكريات فتضطجع ، وترفع فوق جنبها المقرور جناحاً من لحاف زوجها ، فتغمر به وجهها وتنام ملء جفنيها وقلبها وحواسها . وانها لفي غمرة هذه السلوة الخادعة ، اذا بدرفة احدى النافذتين تندفع بعنف فترطم الجدار بصوت داوٍ فتهاجم الغرفة موجة من الريح تنشر عليه وفوق فراش المريض ، رشاشاً مثلجاً من المطر المنهمر بغزارة فتشب المرأة مجنونة ذعراً ، وتكاد تولي هاربة . كانت الريح المتدفقة بموجات باردات تدفع في جو الغرفة شق السجافة الطويل فيبدو في الظلام كجناح خفاش مهيب يهوم في الفضاء قبل ان يستقر .

ولكنها لم تهرب ، بل ودّت لو تصيح وتستغيث وتصرخ : ملاك الموت . . . ملاك الموت . . . اواه . . . لقد اختار زوجي . وتحولت نحو الباب فما كادت يدها تلمس تفاحة القفل ، حتى تنبهت حواسّها المغيبة تحت تأثير المفاجأة فارتدت بخفة نحو النافذة وأغلقت الدرفة . وما هو الا قليل حتى انقطعت الحركة ، وارتخت الستائر وساد سكون فماذا جرى لاحمد ؟

وأقبلت الزوجة على فراش المريض تتلمس رأسه ويديه فألفته يتنفس ويتململ في فراشه . قالت له بحنو ولهفة وذعر معاً : احمد . . . احمد . . . هل انت مستيقظ ؟ اجاب دون إبطاء : من دخل الغرفة ؟ فما كادت تسمع كلماته حتى هالها ان يخاطبها زوجها دون غمغمة فهرعت الى السراج تنيره وأجابت : لم يدخل احد . . . من تريد ان يدخل علينا في مثل هذه الساعة ؟ ان امك لم أرها منذ ثلاثة ايام . أجبني احمد هل انت مستيقظ ؟ فتريث الرجل وسألها جرعة من الماء . قالت : بل سأعطيك كأساً من عصير البرتقال . . . ألا تحب ؟ وكان يخيل الى الزوجة المحتفية بيقظة زوجها في مثل هذه الساعة ان كارثة ما ستقع ثم وقعت . . . فهل زالت ومضت ؟ أليس ملاك الموت طارق الليل هذا ؟ ولبثت تفكر . ولاول مرة منذ مرض زوجها

وولدها خشيت ان يكون اختيار الموت قد وقع على زوجها ثم استطاعت ان تطرد هذا الوهم المفزع .

في الساعة الخامسة من تلك الليلة العاصفة استفاقت الام من ضجعتها الذاهلة ، كأنها حلمت انها نسيت شيئاً . فما كادت تنظر حولها حتى انتصبت على قدميها وخرجت تسرع في خطواتها فوق السطح المتداعي الاخشاب المائل الى الانهيار لتغشى غرفة الطفل . يا لها من قاسية ! كيف أمن جفناها فنامت ساعتين الى جانب فراش الزوج ؟ وكيف افلتت من يدها ساعتان بعيدة عن المريض الصغير ؟ ثم فاجأتها خاطرة شريرة . فلعنت وشتمت وأسمعت الليل صريف اسنانها ودخلت الغرفة ذاهلة اللب طائشة الصواب وصاحت فور دخولها : عبدالرحمن . . . عبدالرحمن . . . انها لا تدري ماذا دعاها ان تصيح باسم ولدها عندما وقع عليه بصرها في مهده ، ماذا حدا بها ان تنادي وهي تعلم انه لم يبلغ من السن ما يمكنه من اجابة النداء ، ثم صاحت : عبدالرحمن . . . حبيبي . . . ها انا جئت . ووضعت يدها على جبينه ثم خدها امام انفه ثم رأسها على صدره ثم اختلجت يداها وارتعشت شفتاها وانتفض جسدها ، وبدأ قلبها يهاجم نحرها هجمات عنيفات . فأخذت الطفل بين يديها .

ولكن الطفل لم يكن يبكي، او يتألم، او يتحرك. ليس لصدره حركة، ولا لانفاسه دفء. وكانت عيناه مغمضتين نصف اغماضة ويداه بيضاوين باردتين كالثلج.

كان ذلك مع الصباح عندما سمع المستيقظون الأول صياح الديك واذان الفجر. فأطلقت الام ولولة حادة مزقت ما تبقى من سدفة الليل فقالت جميع النساء اللواتي سمعن الولولة: مسكينة سميحة!.. أمات زوجها ام ولدها؟

وكان النهار الجديد ناعماً رخياً فبزغت الشمس وهدأ هبوب الريح فخرج الناس من بيوتهم وهم يتطلعون الى بقايا الغيوم التي تصهرها الشمس فما تلبث ان تتوارى من صفحة السماء. وعندما دبت الحياة في الزقاق الرطب الموحل الذي تكاد تتعانق البيوت على جانبيه مشى مع المارة خارجاً من بيت سميحة، شيخ يحمل على ساعديه الممدودتين صرة زرقاء مستطيلة كلما مشى بضع خطوات صاح: لا اله الا الله... وكانت نساء الجيران يطللن على الزقاق وقد حجبن وجوههن فما تبين سوى عيونهن الباكية ويردّدن: مسكينة سميحة مات وحيدها.

... في ليلة عاصفة حالكة، شديدة الزمهرير...

خرج ملاك الموت من ابراجه السوداء قاصداً المدينة على موعد مع اصحاب هذه الدار . . .

طرق الابواب فألفاها موصدة . . .

ولكنه دخل مع الريح من احدى النوافذ التي لم تكن محكمة الاغلاق .

لقد كان يريد رجلاً قصده في الغرفة .

ولكنه وجد فيها الملاك الحارس ساهراً فرجع خائباً .

وعندما دخل غرفة الطفل لم يجد من يحرسه الا سيف قديم معلق في الجدار فابتسم ابتسامة ساخرة وحمل الطفل على جناحه الاسود ، منادياً الانتقام .

. . . وهناك في برجه الاسود الشاهق استل روح الطفل وافرغها في زجاجة بيضاء صغيرة احكم سدها وختمها . وعاد فأضجع الطفل في مهده ، وأسدل على وجهه الحبيب وشاحاً من الشمع الاصفر .

هكذا تكلم سهوم الزوجة الحزينة وصمتها . . . مساء .

انها الآن تلازم زوجها جاثمة امام رأسه دائمة التحديق في عينيه صامتة ومحتسبة . . . وشاكرة . فان يد الزوج الصفراء تنبسط الآن على حافة اللحاف وقد اخذت تدب فيها ألوان الحياة .

جنازة الاولة

قصة ريفية

قالت الزوجة بعد صمت ، وبينما كانت تسرح باصابعها شعر طفلها بحركات عصبية :

ـ اذن انت لا تزال مصمماً على بيع البغال الثلاثة ؟ . .

قال الزوج وهو مضطجع نصف اضطجاعة :

ـ خلاص . . . انتهى . . . (ثم بلهجة حازمة) انت مجنونة . ولماذا لا ابيعها ؟ ألا تعلمين ان من يسافر الى الشام في « كميوني » بنهار كامل ، طويل ، من الصباح حتى المساء ، يفضل على ذلك ان يصل في القرد . . . في الطروميبل ، بساعة ونصف فقط ؟ . . وماذا افعل بعد ذلك بالبغال ؟ خلي عنك يا امرأة . وحدّها ديار البلى . . .

وفجأة انخلع الباب الخارجي الذي يؤدي الى دار وحيدة الغرفة ، وحظيرة ، ومربط دواب ، واندفع صبيان وهما

يصيحان بدهشة وفرح : اتومبيل . . . اتومبيل !. . وعاد الواحد من حيث اتى ولا يزال يطفر ويرقص ، وتخلف الصبي الثاني فاقتلع اخاه من حضن امه ، وساقه الى الخارج ولا يزال يصرخ : اتومبيل عزيز . . . جاء اتومبيل عزيز ! . .

نظر « جمعه » زوجه نظرة احتقار لاصرارها وتعنتها ، كأن طفرة الصبيين الفرحة ، دليل على تأييد رأيه ، واشتراك جميع الناس في مثل شعوره ، حتى الاطفال . وما زاد على ان لفظ : هِهْ ! . . وشد بطنه بحزام جلدي عريض ، ولبث واقفاً في الباب المطل على ساحة القرية . واما الزوجة التي ما تنفك تدافع عن الكمبون والبغال ، فلم تكن لتهضم بعد هذه المفاجأة الجديدة بوصول السيارات الى قريتها . الأنها كبقية النساء لا تشعر بالاحداث او تتأثر بها ، الا متأخرة ؟

قال الزوج وقد ارتخى جنبه الايمن على باب الدار باعياء ويأس :

ـ انتهى . . . خلص . . . انقطع رزقي . يجب ان افتش عن عمل آخر . وسابدأ ببيع البغال بعد هذه السفرة .

ولم تقو الزوجة على السكوت ، فتصنعت لهجة عتب هادئة ، بينما راحت ترقع صدار زوجها :

ـ مجنون . مجنون . أيطاوعك قلبك في بيع « صبيح »؟

اجاب الزوج وقد عاوده اهتمامه :

ـ صبيح . . . صبيح . . . وهل يرد عنا هذا الحيوان غائلة الجوع ؟ مرحباً صبيح !

ـ مع انه سبب سعادتك ، يا كافر . ما كان احسن طالعه يا مغفَّل . وكم كان قدومه خيراً لنا !

وطفقت « سمية » تبكي وتجهش ، كما تفعل جميع نساء المدن ، عندما تفلت من قبضاتهن آخر حيلة للتغلب على الرجال ، بينما كان الزوج يتكلم :

ـ ساسافر . سابيع البغال في الشام . لعنة الله على تلك الساعة . انت مجنونة . اتبكين من اجل صبيح . . . من اجل حيوان ؟ اهو ابوك . . . اخوك ؟ . .

ـ مجنون وحدك يا ابن المجانين . اتظن ان ثمن ثلاثة بغال يكفي لشراء عجلة من عجلات سيارة ؟ الا تعلم ان شعرة من ذنب صبيح تسوى كل ما في الشام من اتومبيلات ؟

فهدأ الزوج قليلًا ازاء ثورة المرأة وقال :

ـ ما يهم ، ما يهم ، لن اكون بعد اليوم سائقاً في سيارة او في كميون . سافتح دكاناً . ان الارجل الغربية يا امرأة

بدأت تطأ بكثرة ارض هذه الديار . وماذا يفيدني النجم الابيض في جبين صبيح ، او الشعر الغزير في ذنبه الطويل ؟ انت مجنونة .

– معلوم . تريد ان تجعل نفسك افندي . . . يا خبر الشؤم .

وقصد الزوج هذه المرة ان يثير حفيظة الزوجة ، فقال لها وهو يدفعها في ظهرها بقدمه :

– قومي . . . قومي . . . وتطلعي الى هذا السرب من الغزلان .

– غزلان . . . اي شيء ؟

– نساء . . . بنات ، سيقان ، ذنيا ، ناس . . . الله رب الشام !

– معلوم ، تريد ان تفتح دكاناً ، وكان ينقصك يا اعور الكلب ان تصاحب بنات الشام !

. . . وكان سكان القرية قد زحفوا برمتهم نحو الساحة فتجمعوا حول السيارة ، يتحدثون عن عجائب الزمان وقرب نهاية العالم . فكان الاطفال يرقصون كأنهم في عرس والنساء يتهامسن ويتغامزن ، وتود كل واحدة ان تكون زوج عزيز .

في المساء نفسه اقلع كميون « جمعة » بشراعه الابيض نحو المدينة . وطارت سيارة « عزيز » في صباح اليوم التالي .

عبثاً حاول جمعه ان يبيع بغـاله في المدينة . فقد تدنت اسعـار البغـال فجأة حتى ان مجموع اثمانها لا يساوي بالفعل ، كما قالت الزوجة ، عجلة من عجلات سيارة . فارجأ البيع النهائي الى سفرة قادمة ، واعد عدة الرجوع الى القرية . وكان اقسى ما يكرهه ان يعود ثانية ، بكميونه الحقير .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع لغيـابه ، نشر جمعة الخيمة البيضاء فوق مركبه ، واصلح ما تفكك من ذاك الصندوق الخشبي المخلوع . ووجد زبوناً واحـداً فقط يركب معه من الخان ، حيث جرت العادة ان يحط الرحال ، هو « ابو سماحة » العجوز الذي هبط المدينة منذ شهر ليتداوى ، فصرف عليه ابنه العامل ، دون جدوى ، حتى اذا يئس منه رماه في الخان ، وشارط « جمعه » على حمله الى القرية لقاء ثمن سيدفعه له على ان يصل سالماً . وحمل الكميون الى جانب ابي سماحة جملاً مكسوراً ، وبطة واحدة وثلاث عنزات . وكان الركب يسير بتمهل وجلال ، مترجحاً ذات اليمين وذات اليسار ، فيسمع بين وقت وآخر ، هدير الجمل المكسور ، وانين المريض العجوز . اما صبيح ، فقد رُبط الى مؤخرة الكميون ، لعدم الحـاجة

اليه . فلم يكن راضياً بهذه القسمة . وكانت سحنته ذليلة ، وذنبه الطويل كاسفاً ذابلا ، فهو يفضل ان يتقدم الركب مجاهداً ، على ان يربط الى المؤخرة كحمار اعرج .

قطعت المركبة ، بسير بطيء ثقيل ، بين السهول والأودية ، ثلاثة ارباع النهار ، وثلاثة ارباع الطريق . وبينما الشمس تميل هبوطاً عن قبة الفلك ، ثارت زوبعة من غبار وراء الكمبيون ما لبثت ان انجلت عن سيارة عزيز تنهب الارض ، وتملأ القفار دوياً . وعندما اقتربت من المركبة ، وشاهد القرويون كمبيونهم القديم جاشت في نفوسهم عواطف غريبة ، فاطلوا من النوافذ ، واستخفهم الطرب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الظفر فراحوا يهتفون ويغنون . وبلغت النشوة في رؤوسهم مبلغاً احسوا له بشهوة للانتقام من جمعه وكمبيون جمعه وكل ما يمت الى جمعة بصلة . فراحوا ، والسيارة تحاذي المركبة وتمر ، يرمون جمعه بما في ايديهم من عماشيش العنب ، وقشور البطيخ ، ضاحكين مقهقهين . ثم تقدمت السيارة مثيرة وراءها العجاج جبالا لا يمر بها البصر . فاضطر جمعه الى الوقوف ، ساحباً بخناق البغلين المهتاجين لاعناً السيارات ومخترعيها وكل من يشتريها . وعندما استفاق من ذهوله بعد قليل ، وانجابت غيوم الغبار ، التفت نحو قبو

الكمبيون ، وهو يمسح بكمه شاربيه المعقرين فلم يسمع حركة . فلقد هربت البطة ، وتوارت احدى العنزات ، ودمي رأس الجمل لفرط ما خبط به جانبي المركبة ، فانطرح على طول المكان وعرضه ، وكان « ابو سماحة » العجوز ينام نوماً ثقيلاً كأنه الموت ، فود جمعه لو يعلم ما بالزبون المريض ، لو لم يكن يكره ان يتدخل بما لا يعنيه ، في مثل هذه المواقف المضاعفة الحراجة . . . واما صبيح الذي اثاره مشهد السيارة الغريب ، فقد حاول الافلات ، فلم يستطع وراح يضرب بمؤخرتيه الهواء ، فحول جمعه رأسه ، حزيناً ، ونهر البغلين ، ملوحاً بالسوط الطويل ، وقد غام وجهه بالدم ، فسارت المركبة تطحن حجارة الطريق .

ـ انتهى الامر ، خلاص . . . ـ قال جمعه ـ ان هذه الآلة الجهنمية قتلت ثمانية ارواح دفعة واحدة ، عدا ما دهست من دجاج وحمير مذ دخلت القرية ، وقذفتنا بها المدينة . . . ثمانية ارواح : زوج وزوجة ، وثلاثة بغال وثلاثة اولاد .

ثم طغت عليه موجة من الحقد ، فاستشاط ، ولعن ، وصخب وراح يهذي :

ـ خلاص . . . انتهى الامر ، انقطع رزقي ، ان اصحاب

هذه الآلة يريدون الشر بنا ، والمكيدة لنا ، قتلونا ، قتلوني .

وراح يلهب الحيوانين بالسوط على الرأس وعلى الظهر واينما اتفق ، فثارا من الالم وراحا يقفزان قفزاً ، والمركبة وراءهما تحط وتنشال ، كأنها سارية باخرة شراعية ، يلعب بها الموج الشديد في عرض البحر .

وانحدرت الشمس نحو افق المغيب فاشرفت المركبة على الوادي الاخير ، الوادي الذي تصعد ضفته نحو القرية ، ثم تنساب الطريق نزولا نحوها ، فاسرع البغلان ودب فيهما النشاط . لقد كان ذلك دليلا على ان القرية اصبحت قريبة فاشم منها الحيوانان المتعبان رائحة الاسطبل والتبن والراحة . ورفع صبيح رأسه لينظر من خلال قبة الخيمة نحو صاحبه الجالس في المقعد الامامي وقد انطفأت نار غضبه منذ زمن ، ولبث محدودبا كأنه يبكي .

في بطن الوادي لمح جمعه سيارة عزيز واقفة . وكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى الركاب منتشرين حولها ، فبدت من هذا البعد كخلية محطمة سرح منها النحل . فوقف على مقعده ونهر البغلين فاسرعا . وما كاد يتقدم قليلاً حتى انفصل من الجماعة رجلان وتوجها نحوه . فماذا جرى ؟ ما الخبر ؟ ان

قلبه آخذ بالخفقان . فهل تعرض قطاع الطرق للسيارة ؟ ان تاريخ هذا الوادي حافل بالحوادث الدامية . ولكن الرجلين اللذين عرفهما الآن كانا من ابناء القرية ، فصاحا ملوحين باليدين: عجل يا جمعه وحول نحونا ! . . ان في الامر ما يريب حقاً . ما الخبر ؟

بل امر يدعو للعجب الشديد . ان السيارة واقفة معطلة ، وقد انطفأت شعلة النار في قلبها ، واختنق هديرها في جوفها ، وغرقت في الرمل على احد جنبيها كجثة جمل مكسور .

كان سائقها منسدحاً على ظهره بين عجلاتها ، ومعاونه معفر الشعر ملوث الثياب بالزيت . والركاب يقفون بذهول حول الآلة الصامتة كأنهم حول نعش حبيب راحل . لقد اجهد السائق نفسه عبثاً ليعرف عطب السيارة . ان محركها جامد ونارها خامدة ، واسرارها مغلقة ، وجمودها يوحي الرعب والهلع ، وما تزال آذان الركاب تدوي حتى الآن بهديرها ، فماذا اصاب الشيطان الاسود المختبىء في جوفها ؟

ان وقوف هذه الآلة العجيبة امر لا يتوقعه البتة هؤلاء الرجال . فكان بعضهم يلمس عجلاتها ، وابوابها ، وسطح محركها ، بحذر وفضول ، كأن الذي اعياها سر من اسرار الغيب ، ان

هو الا الموت فجأة . ولكن هل تموت هذه السعلاة المخيفة ، كما يموت باقي الناس كالبغال والحمير مثلا ؟

لقد كان جمعه احد المذهولين الخاشعين . وكان وجهه الاسمر يتلون بالدهشة مرة وبالشماتة مرة اخرى . وعندما تذكر قشور البطيخ كيف انهالت عليه ، زمجرت عيناه بالغضب ، فلوّح بالسوط واطلق فرقعاته ونهر البغال :

ـ دي . . . دي . . . هس . خاطركم يا جماعة . . .

وتحركت العربة تطحن الحجارة . فصاح الجميع ، وقد اخذوا برؤوس البغال :

ـ جمعه . . . جمعه . . . لا تذهب !

ـ ماذا تريدون ؟ ! خذوا اجور السفر من عزيز ودحرجوا آلته الى جهنم .

لفظ هذا الامر بجرأة وعلى الفور . ولكنه في ضميره ما كان ليشعر نحو الآلة الا شعور الاحترام والاعجاب . . . والهيبة والحذر .

ـ لا تذهب يا مرحوم الاب . سنذهب معك . . .

فارتفع جبين جمعه ورقص شارباه واجاب :

ـ تركبون معي ؟ . . هه !

ثم صمت ريثاً كأنه يتوسع في تفهم هذه المفاجأة الغريبة وتابع اوامره :

– طيب يا الله . . . ادفعوا الاجور كاملة .

فصرخ عزيز من بين عجلات السيارة :

– والاتومبيل يا اخي جمعه . . .

– الى جهنم . . .

– بل نربطه الى الكميون ونجره حتى البلد . . . الله لا يقطعك .

– عندي جمل مكسور . ألا يكفيني مع الركاب ؟

فاحس عزيز بالشماتة وقال مدارياً :

– نحن ابناء ضيعة واحدة يا جمعه .

فاشرق وجه جمعه اشراقاً ، ورقصت شعلة كبريائه في عينيه وشاربيه وحاجبيه وشعر انه انتقم ، فهز رأسه باستخفاف وصاح بالجميع :

– يا الله . . . اركبوا ، طيب ، قبلت .

وارتفع ثانية على المقعد العالي بعدما رُبطت السيارة بالمؤخرة ، وصيح على رأس البغلين الزميلين ، فاحس جمعه وبغاله لاول مرة بعد شهرين بان الحياة استأنفت مسيرها الممتلىء المعتاد ،

فانطلقت العربة في صعدة الوادي واطلت بعد قليل على منحدر القرية والجميع في صمت وذهول .

زحف السكان نحو مدخل القرية ، حيث القبور تصطف اكواماً وحجارة بيضاء على جانبي الطريق ، لاستطلاع الخبر المدهش ، فقد حمل اليهم احد ركاب السيارة الذي وصل الى القرية ركضاً منذ نصف ساعة ان الآلة . . . الطروميل . . . اي سيارة عزيز قد ماتت في الوادي فجأة .

ماتت في الوادي ! وكيف تموت ؟ لقد كان النبأ صاعقاً فعلا !

احتشد الناس بين ساحة القرية ومقبرتها وبيادرها احتشاداً قال قدماء القرية انهم لم يروا مثله منذ توفي المختار الشيخ صوّان رحمة الله عليه . فلم ينتظر الناس طويلا حتى شاهدوا « عزيز » بنفسه لا غيره ، ملطخ الوجه بالزيوت والتراب ، يحرك مقود السيارة المنطفئة ، لتسير ذليلة وراء كميون جمعه مشدودة بحبل ثخين . لقد كان الموت صريحاً . وصدق القرويون الخبر .

كان صبيح يخر صفوف الناس ، عالي الصدر ، مرفوع الرأس كأنه رمز للقوة في مقدمة سفينة حربية قديمة .

وكان صوت جمعه ، وهو ينهر البغال ، ويفرقع بسوطه الطويل ، يتجاوب بين الصخور فيملأ الصوت والصدى الجو وقلوب الناس معاً . كان الاطفال يتراكضون ليسابقوا البغال ، في موكب هرج ومرج . وملأت النساء دكك الساحة بانتظار جنازة الآلة . اما العصافير التي بدأت تبيت بين اوراق الجوز بعد الغروب فقد هربت من مكامنها ، وحلقت في الجو طيور سود ، وانعقدت سحابات من الغبار فوق سطوح القرية التي امست مهجورة ، وكانت الآلة الخرساء تتدحرج على حصى الساحة وراء الكميون وبين صمت الناس وذهولهم كجثة كبير من الابطال محمولة على عربة مدفع . وكان كل شيء في هذا الغروب يبدو حزيناً رهيباً ، فبكت النساء لان مشاهد الموت تثير ذكريات الاموات من اخ عزيز ، واب كريم ، وابن ، وابن عم ، وحبيب . . . الا سمية زوج جمعه .

كانت سمية ، على العكس ، ثملة تغمرها النشوة . حتى ان قلبها لم يقو على تحمل هذه الافراح فكاد يغمى عليها . انها سعيدة لاول مرة في حياتها . فيوم زفافها الى جمعه الاعور لم تكن تشعر باي طعم للحياة ، هذه الحياة الشوهاء ذات العين الواحدة . الا ان زوجها من ميسوري قومه . وماذا يهمها يسره ؟ فقد

كان يعيش دائماً على الطريق ، كأن الله لم يخلق له داراً .

لقد رووا لها قصة الآلة التي هلكت ، ووصفوا لها صبيح في مقدمة الركب ، كأنه حصان اصيل ما مسّ ظهره الا الامراء . وها هي بعينيها تشاهد دخول الموكب . فيا لعظيم ما نالها من سرور ، سرور كأنه قشعريرة البرد . ها هي في الساحة ، يلتف حولها اولادها ، ويتشبثون ذعراً ورهبة باذيال ثوبها الفضفاض وقد علقت عيونهم بصورة ابيهم العالي ، في وضع يمثله كأنه صاعد الى السماء في مركبة نارية . احقيقة ما يرون ام هي قصة في امسية شتاء ؟ وعندما وقف جمعه رافعاً سوطه مشيراً على البغال بالوقوف ، هجمت الزوج صوبه ، وخيل الى النساء انهن سيشهدن منظر عناق وسلام ، فاغضضن خجلا . ولكنها لم تقبل نحو الرجل ، ولم تنظر اليه ، بل راحت حاضنة رأس صبيح ، مقبلة اياه من النجم الابيض في جبينه ، وسمعوها تقول : صبيح . . . صبيح . . . لن يبيعك جمعه بعد اليوم . . . لن يبيعك !

وبينا كان صبيح يترك رأسه المبلل بالعرق الحار بين ذراعي المرأة كأنه يأبى على نفسه الا التواضع في مواقف العزة والكبرياء ، راح جمعه ينظر الى سمية بعينه الواحدة نظرة خجل

واعتذار ، مع ان هيكله المنتصب ، فوق سدته السامية ، لجدير بان يذكر المؤرخين بابطال الالياذة بعدما نفضوا عن احذيتهم غبار المعركة .

تاريخ جرح

من صميم التاريخ

قال الصديق المحامي بعد ساعة تأمل وتدخين : هل لاحظت كيف هربت الطفلة من الجندي ؟

قلت : نعم . انه مشهد غريب !

قال : لقد كانت تبكي ، وتتعلق بأذيال المارة طلباً للنجدة ، كأن الجندي لا يمشي في الطريق الا ليحصد أرواح الناس .

قلت : وعبثاً حاول الجندي ، بكل ما ابدى من عطف ورقة ، ان يرد على الطفلة صوابها . فقد كانت تستر وجهها بكفيها ، وترداد نحيباً .

قال : ألا ترى اننا لسنا ، عند الضرورة ، اثبت روعاً من هذه الطفلة المسكينة ؟

قلت : على كل حال ، فالطفلة لا شك نشأت في بيت أخوف ما يخافه اهله ، الجنود . وهم يحتالون على اطفالهم

ليسكتوهم ، بالبعبع . . . بالجندي .

قال : اؤكد لك انني اخاف الجنود ، وكل من لبس بزتهم ، وازرارهم ، ومهمازهم . . . ولعلني لا اجهل لماذا ارهبهم .

فضحكت واردف : حتى وان كان لابسو الالبسة العسكرية من اصدقائي ، فانني اتهيبهم ، واتجنب محضرهم . واذا قلت لهم ذلك ، لا يصدقون .

قلت مداعباً : هون عليك . فليس الامر على ما تتوهم من الجد . انك ميال الى تهويل الصور . وقد يجدر بك ان تكون شاعراً ، لو لم تكن محامياً . أتحتقر نفسك الى هذا الحد ؟

ولبثت اراقب سحنة المحامي الحازمة ، فلمحت في عينيه الجد كل الجد اذ يحدثني عما يبعث في نفسه مشهد العسكرية والعسكريين . وعاد بعد اطراقة قصيرة يقول :

ـ لقد آلمني مشهد هذه الطفلة !

ـ دع عنك الخرافات . انت مريض اذن ؟

ـ مريض حقاً يا صديقي . اشعر انني ما شفيت يوماً الا لاعود فأنتكس . ويكفي لذلك حادث بسيط ، او نخسة صغيرة . انا مريض وهذا هو الاصل .

ـ غريب . لم اعهدك متشائماً .

ـ قد اكون متفائلاً ، كما يبدو لك في الظاهر . ولعل هذا المظهر وليد حياة المهنة ، حياة المحاماة . فلطالما ساقتني ضرورة المهنة الى الكذب . الكذب على نفسي وعلى الناس . لذلك بدوت متفائلاً .

ثم قال بعد ان امعنت في صمتي : على ان المهنة ، وان تكن قد صقلت ظاهري ببعض عادات وحركات ، فلم توفق الى ان تخلق فيّ طبعاً جديداً .

ـ وماذا يؤلمك في مشهد الطفلة ، مع التسليم بما تشعر به من الناحية العسكرية ؟

فتمهل الصديق ، ورانت على عينيه سحابة كآبة وقال :

ـ هل رأيت الطفلة بسحنتها الصفراء ، وعينيها المذعورتين ، واسمالها الممزقة ، وجسمها الهزيل ؟ . . انها صورة نفسي . فمنذ ما شهدتها جرى في نفسي تداعٍ من الافكار لم استطع تجنبه . ان هذه الطفلة صورة من نفسي التي قد يحجبها عن انظار الناس ، طلاء من الثقافة والتهذيب ، وهيكلي الوقور ، ونظارتاي الثخينتان ، وذاك الرداء الاسود الذي أضعه على كتفي كلما فرض انني في معركة مع الباطل امام سدة القانون . . .

قلت صارماً : هذه نفسك على الارجح ، لا نفس الآخرين او نفسي مثلاً . . .

فقهقه دون ان يضحك وقال : يا صديقي ، قد يكون الفرق بيني وبينك والآخرين انني لا اطيق خداع نفسي في كل وقت . بل يلذ لي ان امزق هذا القناع الذي نستر وراءه خذأ النفس وضعف القلب وهزال الارادة . وانه لخير لنا ان نسفر من ان نتحجب ونمشي في ظلام . اردت ان اقول ان كلنا مريض ، وكلنا وارث مرض . والى جانب ذلك يتصرف كلنا كأنه صحيح معافى . فلا تعجب اذن اذا لم تنجع فينا ادوية الثقافة والتهذيب ومرور الزمن ، لاننا لا ندع العلاج يتسرب الى داخلنا ، الى الصميم . ولذلك امتلأت صيدلياتنا بالمعجونات المكتوب على قواريرها « استعمال خارجي » . وحسبنا منها ان نتدهن بها ونتطيب . فيا صديقي . . . من الخير لنا ان نعرف الداء ونعترف به .

ثم طلب المحامي زجاجة من الجعة وقال : أترى ؟ لقد منعني الطبيب عن الخمور حتى الجعة منها . . . ولكن ما العمل ؟ ان حياتي كحياة الكثيرين لم تعرف الضبط ، فسمق عودي على عود اعوج . وتتلمذت على يد ابي وجدي في اسوأ معاهد التربية .

وفي عروقي ورثت الاهمال والاختلال .

وسحق لفافته على نعل حذائه بحركة عصبية وسألني : ألا تزال تفكر بالطفلة المذعورة ؟

اجبت : لقد تركتني افكر فيها . وهي من المشاهد المألوفة التي امر بها كل يوم فلا اقف عندها .

قال : وهذه هي اعراض الداء العضال . اننا نعيش بين المألوف من الامراض والجراثيم والحميات ، فلا نمر ولا نقف لنفكر . اننا نمشي على اكبادنا ، ونرقص على قبورنا . وهذه هي حالنا ، وذاك هو مصيرنا . ويخيل الي انه من العبث صراعنا مع مصيرنا .

ثم غام وجه المحدث كمن ألمّ به ألم . قلت : فهمت . . . فهل تشكو شيئاً ؟

قال : نعم . لقد اصبح اقل هياج في هذا الدماغ يثير في معدتي واحشائي الماً حاداً . ولا ادري ايهما يتأثر بالآخر . ولكنه الم سيودي بي كما اودى بحياة ابي . اننا وارثون عن آبائنا حتى الامراض التي هلكوا بها ونهلك . اتقول لي : لا تتشاءم ؟ وفيمَ التفاؤل ؟ شباب كالسراب ، واحلام كالزغب ، نحن جيل نعيش بين حربين . نجونا في الاولى اطفالا وسنهلك

في الثانية شيوخاً . نحن معبر ، ممر . . . جسر . ثم لا شيء . فليعتبر بنا من بعدنا .

تعب صاحبي من حماسته ، فصمت وراح يدلك جبينه ببطن كفه واربع اصابعه . وكانت سبابته المرتجفة تقف على اثر جرح عميق ظاهر يكاد ينتصف جبينه نحو اليمين . فخيل الي والدم يفور حول هذه الثغرة القديمة ، انها ستعود جرحاً نازفاً .

قال مفاجئاً : بمَ تفكر ؟

قلت : انت مضطرب . . . افكر بك !

قال : اترى الى هذا الجرح في جبيني ؟

قلت : كيف لا وتكاد تكوّه بأظفارك !

قال : ان للجرح تاريخاً عجيباً .

قلت : لا عجب . انك تحب التاريخ ولو كان في شعرة من رأسك .

قال : وهذا التاريخ من نوع موضوعنا . هل تستطيع ان تصغي ؟

وتناول الصديق كأسه فجرعها حتى الثمالة وراح يحدث ، قال :

ـ سألت ابي ذات يوم عن سبب هـذا الجرح الذي كاد يشوهني . فأجاب ضاحكاً ضحكة طويلة عالية : ماذا خطر لك

حتى تسأل ؟ على اني كنت اتوقع يا ولدي سؤالك منذ ما بدأت تفكر وتنظر في شؤون نفسك . كثيرة هي الجراح التي لا تعدو كونها اصطداماً بجسم صلب ، ولكن جرحك . . . جرحك له تاريخ . فأذهلني هذا التخصيص ورحت الح على والدي يوماً بعد يوم ليقص علي الحادثة حتى قبل ذات مساء ، بعد ان تأملني طويلاً وتكلم :

« كان ذلك يا ابني ، في قريتك التي ولدت فيها وترعرعت ، في عهد من اظلم عهود التاريخ ، يوم كانت هذه البلاد لا تفقه معنى لكلمة وطن ، ولا تعرف من اسم « عرب » غير ما يمكن ان تراه من خلال الجنسية العثمانية . وهل ترى شيئاً ؟ كان ذلك اثناء الحرب ، اثناء السفر برلك ! »

واستدرك المحامي قائلاً : والدي عثماني قح ، نشأ مخلصاً لهذه العثمانية ، في تفكيره ، وعاداته ، وزي طربوشه غير المقشش ايضاً ، لولا ان مظالم السفربرلك ، قد زحزحت هذه العقيدة عن مكانها ، وألانت صلابتها . واذكر انه كان يقول لي في ايامه الاخيرة : لقد حجبت العروبة بالاسلام في هذه البلاد ، والاسلام حجب بالعثمانية . فلا اسلام بعدُ ولا عروبة ، بل عثمانية صرف . قال ابي :

« هبط القرية في اعوام الحرب ضابط عثماني يدعى نظلي افندي ، ما زال اسمه يركب حتى الآن بعض حارات القرية المسماة بحارة نظلي افندي ، وما زلنا حتى الآن نسمي كل غليظ رقبة ، مبشوم كرش ، مخنوق الوجه بحمرة سمراء كأنها لون الغضب والاحتقار والفسق معاً ، نظلي افندي . وقد كانت مهمة الضابط جمع الجنود ، وقبض ابدال المتخلفين عن التجنيد ، ومطاردة الفراريين . ولا ادري لماذا اقام هذا المخلوق طويلاً في قريتنا ، فان صدق استنتاجي فلا يمكن ان يكون سبب ذلك سوى جهل رؤسائه وولاة امره بشأنه . لقد كان الحاكم الذي يحل بلداً يا ابني ، يطوبها باسمه . فالوالي مالك المدينة ، والمتصرف يتصرف كما يشاء ، والقائمقام حاكم مطلق الصلاحية ، والجنود يتحكمون بشؤون الرعية كما يطيب لهم ، وان دركياً واحداً يطل على قرية لكاف لالقاء الذعر في نفوس سكانها الذين ينقادون لسوطه كما تنقاد الاغنام . ولو شاء عزرائيل ان يعيش بين الناس وقتئذ لما تزيا الا بزي جندي .

« لا ننكر ان العرب في مطلع تلك الحرب ، قاموا الى جانب السلطان يناصرونه ، تدفعهم حماسة عثمانيتهم وعصبية دينهم فجعلت منهم عنصراً طيباً في يد السلطان والباب العالي ، ولكن

الجوع ، ولكن الظلم ! كيف تعيش الحماسة في هيكل عظمي، واي عصبية تدخرها جلود تلهبها السياط ، وجباه يعفرها الهوان والذل ؟ وكان اذا قدر لمجند ان يعود من سوح القتال ، راح يقص على اهله من سير الفظائع ما تتفطر له القلوب وتحتبس الانفاس . على ان اكثر المجندين ، ان لم تمزقهم الحرب ، ويلتهمهم التيه ، فيعودوا سالمين ، لا يلبثون ان يهلكوا بالحميات التي يحملونها ، فتبقى اكثر سير الهول مدفونة في ترابهم . »

وبعد تفاصيل مؤلمة قال ابي :

« . . . فهرب من شباب القرية من هرب ، واستسلم من استسلم ، ودفع بدل الجندية من استطاع . وكان نظلي افندي بين يوم وآخر يأمر بانزال مختاري القرية الى الساحة العمومية ، فيسطحهم على ظهورهم مكتوفي الايدي ، ويأمر رجاله بجلدهم وتعذيبهم ، لماذا ؟ لأن نظلي افندي لا يشبع ولا يكتفي ، وهو انما يريد مالا ورجالا ، ابداً . وكان يتهم المختارين بتواطؤهم مع الفلاحين لتهريب الصالحين للخدمة ، واكل ابدال الجندية . وكان بعض دافعي الابدال من الفقراء يرهنون ما يملكون عند بعض الوجهاء ، والاثرياء ، لعام او لاثنين او لاربعة او اكثر ، لقاء البدل ، وكان من لا يستطيع حماية نفسه

يدخل اجيراً في بيوت اصحاب النفوذ ، واضعاً اولاده ونساءه وارزاقه تحت تصرفهم . فنشأ في تلك الايام السود ما نسميه اليوم « اقطاعية ملكية » في الريف السوري . ولا تحسبن ان الاقطاعية نظام توارثه الناس في بلادنا ، كما نفهم من تاريخ الاقطاع في اوروبا . انما هو وضع يد قسري ، ساقت اليه حالة الجهل والظلم والعوز ، في الاعوام العثمانية الاخيرة . فاذا فسد السلطان فسدت الرعية . »

ثم قال بعد تمهل :

« كل ما ذكرت ، ما هو الا توطئة . فاعلم بعد يا ولدي ، ان نظلي افندي قد فسق ، وشره ، واستكبر ، وطلب من القرية احدى البنات ، بدلا عن اخيها الفراري . فكانت الطامة الكبرى . لقد جمعنا لنظلي افندي بدلين اثنين حالا عن الشاب الفار حسّان ، فأبى الا اخته نفسها بدلاً . واقسم ان اختفت حسّانة من البلد ، لينكلنّ بجميع نسائه . وكان هذا الجندي القاسي الشرير ، السكير ، لا يقسم الا نفذ ، ولا يقول الا فعل ، وبيديه آلتا التعذيب اللتان اكتوى بهما جميع السكان : سوطه ومسدسه . »

واطرق والدي العثماني ، بعد ان خلع طربوشه عن رأسه ،

فرأيت العرق ينقط من صلعته الحمراء التي غدت كقشر البرتقال واردف يقول :

« ماذا اصف لك ، وماذا اقول ؟ انها ايام لا يعرفها يا ابني الا من عاشها . لقد كان نظلي افندي يشرب الخمرة كل مساء ، وينتظر ان يحمل اليه القوم الفتاة حسانة ، وما كان يصرفه عنها ويصرف شره عن القرويين الا سكره الشديد وفقدان وعيه فينام . ثم يستأنف في الصباح تهديده ووعيده ، فينزل المختارين مكتوفي الايدي الى ساحة البلد ويأمر بجلدهم واهانتهم ، مهدداً بقتلهم ان لم يسوقوا اليه حسانة ، الليلة . وقد بلغ من قحته وفجوره واستهتاره ، ان رفض قبول حسان الفراري نفسه ، واصر على ان يقبض عفاف اخته حسانة بدلا ، فيا للهول ! وما حيلة الناس ؟ وماذا يصنعون ؟

« لقد استقر رأي وجوه القرية ومختاريها ، بعد يأسهم من الضابط وفقدان كل حيلة ، على تسليم الضحية للوحش . ولا تعجب يا ولدي ، فان الذل لم يبقِ في تلك النفوس سمة من سمات الحياة البشرية . لقد كنا مجموعة معيز يرعاها ذئب . . . مجتمع حيواني لا غير .

« في اصيل ذات يوم ، سبق مختارو القرية ووجهاؤها ، الى

ساحة التعذيب والجلد ، واعطوا مهلة ساعتين ليسلموا خلافها حسانة . وكان كل واحد منا يشعر ان فاجعة ستتم هذا المساء . وكانت القرية ساكنة هادئة كأنها دفنت حية . . .

« . . . من يجرؤ على مس حسانة ؟ صحيح . . . انهم ارادوا تضحيتها لانقاذ نفوسهم . ولكن ها هم في الساحة صفر الوجوه ، ممقوتو السحن ، مضطربو الشفاه ، يرتعدون كالحشيش اليابس ، وينتظرون قضاء الله . فهل تحرك احدهم ليسوق حسانة من مخبئها ؟ من يجرؤ ؟

« وبينما هم على شفا الموعد الرهيب ، والسكون يسود ، اقبلت امرأة تركض نحو الساحة ركضاً جنونياً ، سرعان ما تبينوا فيها الفتاة حسانة ، تهرول حاسرة الرأس ، حافية القدمين . فصعقوا وامسكوا بقلوبهم . وعندما اقتربت من الرجال والتقت عيناها باعينهم ، خلال بضع ثوان ، تحولت نحو الصخرة الصغيرة القائمة على طرف الساحة ، فصعدت عليها وارتقت ذروتها وسمعها الناس تصيح : ها انا جئت يا ابناء البلد . ألا ترون ؟ »

قال محدثي : وقفز والدي من مقعده واعاد طربوشه الى رأسه بحركة سريعة ، وكان ذلك من عادات تأهبه للانصراف .

ثم نهض وذرع الغرفة مرتين وثلاثاً واكمل حديثه واقفاً :

« لا ادري ماذا اقول لك . ولا اذكر كل ما نطقت به هذه الفتاة ، ولكنني لا ازال اسمع صوتها يزأر زئيراً ، وفمها يطلق اللعنات كمدفع يخر له الناس صرعى ، واحداً اثر الآخر . ماذا اقول لك ؟ اني اراها الآن تمزق قميصها عن صدرها ، وتهتك ثيابها عن جسدها ، وتبدو للملأ ، عارية عرياً كبيراً فاضحاً وتصيح : ها انا امامكم ! فلماذا لا تتقدمون لتأخذوني ؟ تقدموا . أما اردتم تسليمي الى نظلي افندي ؟ نعم . . . نعم . لقد ارسلتم رجالكم في اثري لتقبضوا علي وتنقذوا ارواحكم الشريرة من عذاب السياط . فخذوني خذوني ، يا رجال بلا شوارب ، ويا تيوس بلا قرون ! . .

« وكان هذا الجسم البض الخافق ، المختلج ، يصرع العيون ، ويصفع الجباه ، فلا يرى الناظر اليه ، الا عضلات مرصوصة ، واعصاباً موتورة ، وعروقاً نافرة كثعابين . اما ذلك الوجه الجميل ، البريء ، الموار بالحياء والخجل ، فقد غدا بكل مفاتنه ، تكشيرة واسعة واحدة ، كأنه وجه سعلاة مفترسة . وعادت تصرخ : تريدون تسليمي يا انذال ! لماذا تجمدون كالأخشاب ! لن تمتد ايديكم الي ايها الخصيان . وسأذهب انا ، لأقدم نفسي

عارية ، كما ترون ، على مائدة المحبوب ! سأذهب بنفسي عارية نحو الضابط الجميل . ولن اعانقه سراً في خلوة . أما يجب ان ترانا شواربكم الثخينة ! نعم . . . سترون بعيونكم . وسآمر حبيبي ان يحلق لحاكم بالنعال احتفالا بيوم عرسي . ها انا ذاهبة .

« نزلت عن الصخرة عارية ، فهاج الرجال ، وعلا لغطهم ، وتوسطهم واحد فراح يصيح مخنوقاً : اتدعونها تذهب ؟ سيروا اليه . . . لعنة الله على الارض التي تحمل امثالكم من الرجال ! وطفق النساء يندبن ويولولن ، عندما شوهد الفراري حسان يقبل راكضاً ، وقد شهر خنجراً طويلاً ، وهو يصيح : لعينيك يا حسانة ، سنذهب معاً . واندفع نحو دار الضابط فما لبث الرجال ان ماجوا وراءه موجة واحدة ، وهم يرمون عقالاتهم في الهواء ، ثم تبعتهم حسانة بعدما رمت على جسدها بعض الستر ، وتبعتها النساء نادبات مولولات . »

قال محدثي : كان والدي يلهث تعباً ، وقد سال عرقه من حاجبيه وشاربيه ، وقال وهو يضع يده المضطربة على ركبتي : ما اقسى ان يعيش مثلي بين هذه الذكريات يا ولدي ! . . ثم تابع كلامه :

« لن اطيل عليك الشرح . لقد كانت معركة شديدة الهول . قتل فيها المهاجمون ثلاثة من رجال الدرك ، وجرحوا الكثيرين منهم ، وسقط منهم عشرة قتلى وامرأتان وطفل ، قبل ان يصلوا الى دار الضابط الذي كان وراء مائدة الشراب يسكر كعادته ، وينتظر تسليم حسانة . وكان اول الداخلين عليه حسان الفراري ، فبادره بضربة قضيب رمان بين كتفيه وصاح به : ها انا ايها الوحش ! فقهقه الضابط ولبث يشرب ثم قال : ها ها . . . جئت ؟ . . هل تريد ان تقدم لي اختك هذه الليلة ؟ وهنا تقدم احد الرجال وركل بقدمه مائدة السكر ، فقلبها وتحطمت صحونها . ولكن ذلك لم يزد نظلي افندي سوى قحة وجرأة وهو المستهين بشأن القوم ، فقال مقهقهاً : اين حسانة ؟ هل جاءت معكم ؟ لقد طاب الآن ان اضاجعها على جثثكم يا كلاب ! . . وقبل ان يقفز على قدميه ليتناول مسدسه من جيب معطفه المعلق ، بادره احدهم بضربة من دبوسه الخشبي على رأسه ، وقبل ان يهوي على الارض كان خنجر حسان يمزق احشاءه . لقد كان من اليسير جداً ان يقتل القوم ظالمهم . ولكن هي حبة صغيرة من العزيمة كانت تقف دائماً بين اكبر المظالم ، واكبر الثورات . . . حبة صغيرة ! »

ثم قال ابي : « والآن ستتم الفاجعة . التفت حسان فرأى اخته وراءه ، مبتسمة مستبشرة ، تسيل دموعها ، ويختلج فمها الجميل عن كلمات لا تعرف كيف تقولها . فصاح حسان صيحة مفزعة : حسانة . . . حسانة . . . اختي . . . شرفي . . . ورفع خنجره الذي لا يزال يقطر دماً ، وطعنها في نحرها . فسقطت على الارض وهو يهمس : لن يراك الرجال بعد الآن ! . .

« مسكينة حسانة ! كان لا بد لها ان تكون احدى الضحيتين : ضحية الفسق ، او ضحية الشرف ، فكانت الثانية . لم يستطع احد ان ينظر الى حسان ، او يقول له : لماذا فعلت ؟ لقد كانوا يعلمون لماذا . فأطرقوا خاشعين ، تتوسط دائرتهم حسانة الفاتنة ، دامية صريعة .

« لقد كانت الابتسامة الاخيرة لا تفارق ثغرها المبلل بالدموع ، عندما انحنى عليها حسان ، فاحتضنها ، ووسد رأسها الذابل ذراعه وسمعها تهتف : حسان . . . اخي . . . بوركت يدك يا حبيبي . كنت اريد ان استجديك الطعنة المنقذة فلم اجرؤ خجلاً منك ، وصوناً ليمينك من ان يلوثها دمي . حسان . . . قل لي : هل اصاب خنجرك قلب الوحش ؟ بوركت يدك يا حسان ! . . ثم احتبس لسانها ، وظلت بضع ثوان تبكي

حتى سالت روحها الجميلة من عينيها ! . . »

قال صاحبي : « ولبثت ابكي وابي طويلاً ، وكدت انسى قصة جرحي . فسألته : وقصة الجرح ؟ فدلف نحوي ولبث يحدق في الاثر وقال : ان تاريخ جرحك لم يكن شيئاً يذكر لولا هذه الحوادث المؤلمة التي سردتها لك . لقد كنتَ وبعض رفاق الطفولة تلعبون في الساحة ، عندما وقعت حوادث ذاك المساء المشؤوم ، وان شئت قل ليس مشؤوماً . فأصابك دركي بعقب بندقيته وادماك . فحملتك وادخلتك دكاناً قريباً ثم عصبت رأسك بمنديل ، وعندما انتهت المعركة عدت اليك فألفيتك تنام .

وفتح ابي عينيه على سعتهما واقترب مني يقول : رشيد . . . ألا تتذكر ؟ ألا تذكر شيئاً مما قصصته عليك ؟ نظلي افندي . . . امرأة عارية على صخرة الساحة تولول وتصيح . . . جنود ، هياج ، رصاص . لعلك كنت بين السابعة والثامنة من عمرك . . . هل نسيت اسم نظلي افندي ؟ »

وألقى محدثي رأسه بين راحتيه ، وسبابته تنقر نقراً عصبيا في ثغرة جبينه ، وراح يخاطب نفسه : أأذكر ؟ كيف لا ؟ انني اعرف شبح نظلي افندي . لقد كنا صغاراً نهرب حيث يمر . واذكر فتاة عارية ، ورجال الدرك . . . قليلاً . . . قليلاً كهلال

الشك ! . . كيف لا اذكر ، وانا اشعر من الاعماق انني عاصرت بطفولتي اسوأ ايام الشؤم والموت . وكلما وضعت يدي على قلبي ، احس بنطفة من المذلة والجبن راسبة فيه راسية ، تلازم حياتي كما يلازم جبيني اثر الجرح ، والا فكيف تكون نفسي مريضة ، ولم اوفر شيئاً في سبيل تهذيبها وتعليمها وصقلها وعافيتها ؟ انا مشدود الى مصير لن يعافني ، انا من ابناء السفربرلك ، ومن مواليد اعوام النحس ، اعوام نظلي افندي ، اعوام الجوع والجراد ، والهواء الاصفر ! . . أأذكر ؟ بل كيف انسى ؟ اواه ، اننا امة قاست شديداً .

ثم التفت صديقي نحوي فجأة وقال : الجعة باردة ، أليس كذلك ؟ لقد جمدت عروقي . . .

وصفق فحضر الغلام على الفور وانحنى قائلاً : امر بيك ! . . فلوى البيك شفتين ساخرتين من نفسه وقال وهو ينظر في الارض : هات عرق . . .

المعركة

حوارية ١ ذات فصلين

الفصل الاول

الموضوع : بين يدي ورقة يا نصيب ، رقمها الذي ستشير اليه اصبع الحظ او لا تشير ٤٢٨٤ ، وانا على بعد ساعات من ميعاد السحب .

المسرح : غرفتي المقفلة ، المسدلة الستائر ، المخنوقة بالدخان ، والكتب مبعثرة والاوراق منثورة .

الاشخاص : انا ، ونفسي ، وعقلي ، والراديو . ولا انتظر احداً في مثل هذه الساعة .

بينما الغروب يسدل سجفه ، جلست افكر . حاولت ان اكتب وكنت مغلقاً كغرفتي . وفي اجواء تفكيري سديم مضطرب ، لا يقاس بـه جو الغرفـة الداخن . قلت لنفسي :

١ الحوارية من القصص، كما ارى ، هي التمثيلية التي لا يمكن اخراجها ، وصلتها بالمسرحية « لغة الحوار » فقط .

ايستطيع مثلي ان يكتب او ان يفكر ، اذا اصبح غنياً ؟ يميناً ما كنت احلم بالثراء ، لولا ما يثير فيّ هذا الرقم المشؤوم ٤٢٨٤ من فضول وإغراء ورجاء . وما جدوى ان يكتب الانسان او ان يفكر ، عندما يصبح غنياً ، تقوم بخدمته شتى وسائل المدنية الحديثة ! بل هل يستطيع غني ان يكتب شيئاً له قيمته او ان يعطي نتاجاً له خطره ؟ هي ساعات اليأس ، حيث ينكر الانسان «قيمة» كل شيء ، ولا يفهم الا «ثمن» كل شيء . هي ساعات اليأس من الصلاح والاصلاح .

قلت لنفسي . . . نعم ، لنفسي : ما فائدة كل هذا ؟ وأشرت نحو الكتب ، في دقيقة من دقائق الوهن والخور والخذأ . وقالت لي نفسي مؤكدة : لا فائدة . فيا لنا من فقيرين ، انا ونفسي !

٤٢٨٤ رقم بطاقتي . فاذا ربحت ؟ يا للغبطة ! وراحت نفسي ترقرق كالعصافير ، في مستهل الربيع . اذا ربحت فسأجن . السعادة لا أتحملها .

وفي غمرة هذا الدخان الراكد ، في جو لا تسبح فيه نسمة الا غريقة مخنوقة ، راحت عيناي تتسقطان خبراً ، او تتلمسان شبحاً ، او تغازلان سراباً .

أأجن ؟ لا يا نفس . كل نهاية الا الجنون .

وهنا سمعت صوتاً عميقاً : ماذا تعني ؟

ثم تبدو على المسرح نفسي . ها هي ملمسة من ذاتي ، خارجة من وعائها ، راكبة متن الحس . فما اغرب هذا الشكل !

ـ ما اجملَك يا نفسُ !

تظهر نفسي بوضوح ، وتمثل فيها جميع عناصر وجودي ، وكياني ، فكدت اشم فيها رائحة شعري او تحت ابطي .

ـ يا حبيبتي ، يا نفسي ، ما اجملك !

ونفسي شبح ازرق بلون السماء ، في امسية ربيع . هيفاء ، بشفتين قانيتين معكوستين على زرقة النحر ظلاً خفيفاً شفافاً ، فما اجملها لو رآها سواها بعيني ، ولن يراها .

ـ ها انا . ماذا تريد مني ؟

ـ هل كنت ادعوك ؟ (افكر) .

ـ وكيف لا ؟ لقد اخرجتني وانت تبسط لي من ابتساماتك ودعابتك رحباً سهلا .

(اتأملها بشغف) .

ـ ما قصة جنونك ؟ ولماذا تهذي ؟

ـ هل سمعت ؟

ـ وكيف لا اسمع وانت توجه نداءك الى داخلك ، فيكاد لا يسمع احد سواي ؟

ـ صحيح . فطنت .

ـ لماذا تجن ؟

ـ من السعادة . . .

ـ سعادة الزنج ؟ بلى ، سمعتك تحلم ، سمعتك تتمنى . آه ، لقد خرجت اليك ، تحدوني رائحة الاماني . ما اشهى رائحة الاماني !

ـ ما رأيك لو ربحنا ؟ . .

ـ ثلاثة ملايين فرنك ! (تصفق فرحاً) .

ـ انني اجن . السعادة ثقيلة .

ـ تردد قصة الجنون ! ما بك ؟

ـ نعم . هي قصة جميع من تفاجئهم السعادة . لقد رووا لي ان كنزاً في بئر خرج على وجه احد القرويين الذين رصد عليهم ، فما لبث ان جن ، فكان الناس يرونه هائماً على وجهه يبكي ويندب حظه ، وينثر على المارة ذهبه وماله .

ـ خرافة !

ـ وقيل ان كنزاً آخر ، الى جوار البئر ، في القرية نفسها ،

من خرج على وجهه جن . ولقد رأيت القرويين يجعلون طريقهم بعيداً عن البئر المرصودة ، لانهم لا يريدون ان يثروا ولا ان يجنوا !

ـ مجانين !

ـ بل عقلاء يا نفس . فالانسان مهما تطوّر وتهذّب وأعد نفسه ، لا يمكن ان يكون اهدأ روعاً من القروي الذي طار صوابه ، او احكم عقلاً من القرويين الهاربين من طريق البئر المسحورة .

ـ هوّن عليك . انك لتثقلني دائماً بوساوسك وتطيّرك . ان مصادفات النحس قد بثت فيك هذه الطيرة . ولو علمت ان في الحياة مصادفات سعد ايضاً . . . فاخرج من قوقعتك . . . اخرج !

ـ لقد كنت مصيباً ابداً في حذري .

ـ هه . . . جبان . لطالما جنيت عليّ ، وابعدت عني ألف فرصة وفرصة .

(مجرد) :

ـ لا يصح يا نفس ان نجازف برفيقنا العقل في دروب هذه المغامرات الشعواء التي تدفعين اليها . انها مؤامرة .

ـ يا له من عجوز ثرثار . . .

(بزجر) :

ـ لا تكفري . ما قيمة جمالك لولاه ، انه صوغ لك وحلية في عنقك . كم مرة اشرفت على النار ، وكم مرة اشفيت على الهلاك !

ـ انه سبب تعبي وشقائي وحرماني حريتي .

(بحدة) :

ـ انت متهورة . لولاه لما رأيتك الا راقصة ، او احدى مغامرات « مونمارتر » بعد نصف الليل .

(نفسي تحمر ، ثم تعود الى زرقتها وصفائها) .

ـ أتهينني وانا نفسك ؟

(تأخذ قدحاً وتسكب فيه الخمر من ابريق تحت يدها وتشرب).

ـ لا تفعلي . انها السم . ولطالما قلت لي ان فيك افعى ، اذا شربت استفاقت وغدت ضارية .

ـ أزح عني كابوس هذا الرفيق العجوز . انه يخاف الافعى . فلتخرج من نومها .

(انني اشاهد في جسد نفسي الازرق الان رؤية عجيبة . لقد شفّ عن عروق تتفرع في انحائه كأسياخ محمية ، ملتهبة ، حمراء .

وبين الضلوع ارى القلب كمرجل احمر يرسل حوله انابيب حمراء).

ـ منعتكِ عن الشرب ، شرب الخمر .

ـ كان بامكانك ان تفعل قبل ان ابدأ . لماذا تضع الخمر هنا ؟

ـ لقد غدا وجهك احمر مخموقاً . انظري في المرآة . انك مخيفة .

ـ هي ساعات الصفاء .

(تضحك فتقهقه وترتمي في احضاني جميلة فتانة) .

ـ انت غريب عندما تتركني لتدافع عن عجوزك الثقيل .

ـ نفسي . . .

ـ عزيزي . . .

ـ لا تتهوري .

ـ لا تكن بليداً .

ـ كفاكِ شرباً .

ـ افتح الراديو . طابت الموسيقى . ليّمت العجوز .

(انغام راقصة) .

ـ يا للسماء! اسمع يا عجوز ! ثلاثة ملايين فرنك ، (تشرب) دنيا من السعادة ، والرخاء ، والبذخ ، والمتعة ، والسفر ، والمغامرة ،

(تشرب) ثلاثة ملايين فرنك . . . (تشرب) .

ـ أأربح ثلاثة ملايين فرنك ؟ (أشرب) .

(تأخذ الاسياخ الحمراء تتضخم شيئاً فشيئاً في جسدها الازرق . فتلتهم الحمرة الملتهبة ، الزرقة اللطيفة وتأتي عليها . ويضج القلب كموقد تفجر) .

ـ سنشتري بيتاً ، وسيارة ، وثياباً ، وحدائق ، وسنسافر . وسنغامر . (اشرب ، تشرب) .

(انغام راقصة . ونفسي الزرقاء تغدو عموداً من نار) .

ـ ماذا اصابك ، نفسي ؟ انك تحرقينني .

ـ ليذوب جليدك ، ويغرق عجوز الصقيع ، في بحر جهنم ! هل تعرف جهنم كبحر ؟

ـ عرفتها .

ـ اذن تعال . . .

(تأخذني بيدها ، تنهضني ، تعانقني . تلصق بي ، تدور بي على ايقاع الانغام المتصاعدة من صندوق الراديو . ثم تدور بي ايضاً . تلهبني بأنفاسها ، بالنار المنبعثة من اسياخها الحمراء . ادور معها ، كحطبة التهمها اللهب . اذوب بها ، واظل ادور . انغام راقصة دائماً) .

كيف انت ؟

ـ اين انا ؟

ـ معي .

ـ ماذا جرى ؟

ـ أتسمع ؟ ارقص .

ـ اين انت ؟

. . .

ـ اين انت ؟

(ادور على نفسي . افتش عن نفسي . ارى شبحي في المرآة صدفة كجمرة تدور على دولاب سريع . . .).

ـ لماذا ذهبتِ ؟ اين تذهبين ؟

ـ انا معك . . . (صوت بعيد عميق) ارقص ، در ، اشرب ، اطرب ، احمق ، بليد ، صفيق ، ارقص . . . در ، اشرب (يتوارى الصوت) .

(انغام راقصة دائماً . اسقط متهالكاً على المقعد . فارى السرير يتهادى في جو الغرفة ، والسقف يدور على نفسه ، تحت قدمي ، والكتب تتطاير حولي ، صعوداً هبوطاً ، حمراء ، سوداء ، بيضاء ، صفراء ، كمجموعة فراشات ، هبت عليها زوبعة) .

الفصل الثاني

انا . النفس . العقل . الراديو .

لا يبدو على المسرح جديد الا الاضطراب ، والتهويش ، والدخان الكثيف .

انا ـ (مطرقاً ، ذاهلا ، ورأسي بين كفي) : تباً لي من احمق ! ماذا فعلت ؟ وما هذا الدوار الذي يصرعني ؟

العقل ـ (يتقدم من احدى الزوايا المعتمة) : انهض ايها الطفل الاخرق ، فلقد طالما منعتك ان تكون العوبة هذه الفاجرة المغامرة .

انا ـ (مباغتاً) : هس . . . لا تسمعك .

هو ـ أتخشاها ؟ جبان !

انا ـ ويلي منك وويلي منها . . .

هو ـ ويلك من نفسك الامارة بالسوء ، امّ لهب ، حمالة الحطب .

انا ـ وما عساها تفعل ؟ صبية فقيرة ، لا غذاء لها الا الاحلام ، ولا ماء الا السراب . . . أفنقسو عليها ؟

هو ــ بئس ما تأكل وما تشرب ، وما تأخذ وما تدع بئس ما أكنّت ، وبئس ما افصحت ، أحية في قميص من حرير ، ام دودة في جيفة وصلصال ؟

انا ــ رفقاً . لقد كنت اتلمظ معها طعم السعادة . اواه ! شيئان لا اعرف طعمها : حليب امي ودر السعادة .

هو ــ واي طعم في سعادة غير حسية ؟

انا ــ رويدك ! أليس التعلل بالسراب ، خيراً من الظمأ ؟

هو ــ الماء على ظهرك لو تعلم . . .

انا ــ بربك . . . ما اصنع ؟

هو ــ صن نفسك عن خلاعات الهوى ، وضلالات المنى .

انا ــ ويح نفسي .

(سكون . ثم يزجر الشيخ غاضباً ، متوعداً ، واسمع حركة . فارفع بصري من اطراقة ، واشاهد الفتاة الزرقاء ، في صراع مع الشيخ في الزاوية) .

هي ــ ماذا تقول يا ثرثار ؟

هو ــ اخرسي يا فاجرة . . .

انا ــ ما اجملك !

هو ــ مغفل .

هي ــ اطرد هذا العجوز .

انا ــ رحماكِ .

هو ــ اترك ذراعها يا جبان .

انا ــ عزيزتي هدئي روعك .

هي ــ أتتآمران عليَّ ؟

انا ــ ما خنتك . . . وحياتك .

هو ــ ساقطان .

انا ــ حلمك . . . عطفك .

هي ــ أتستعطفه . . . هذا الوحش ؟

انا ــ كلا . . . ماذا اقول ؟

هو ــ جبان . . .

انا ــ ويحي . . . ما كنت احب مثل هذه الاجتماعات ! اف ! اخرج . . . اخرجي . . . رحماك لا تذهبي . . . انا مجنون . فقدت صوابي .

(هو يرغي ويزبد ، وهي تظهر في جسدها الازرق الجميل اسياخ النار وقد راحت تنتشر حمراء قانية . والقلب يشتعل بين ضلوعها كموقد تفجّر) .

انا ــ لا تذهب . . . ارجوك .

هو ـ اطرد هذه الوقحة .

هي ـ (تجابهه) : إخرسْ .

(تصفعه بكفها المشتعلة صفعة داوية ، فينقلب الى الزاوية بلا حراك كعمود ملح) .

انا ـ ويحَك . . . ماذا فعلتِ ؟

هي ـ (وقد بدأ يعود اليها وعيها) : لا تنسَ موعد السحب .

انا ـ صحيح ! . . صحيح ! . .

هي ـ (تفتح الراديو وتسوّي هنداما) : أفٍ ، ما ازعج هذه الأمسية ! قلت لك الف مرة ، لا تجمعني بهذا العجوز الخرف.

انا ـ نفسي . . . لا تكوني شرسة ، تعالي .

(تتعانق ، انغام موسيقى) .

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . نخاطبكم من صالة « التروكاديرو » حيث تسمعون نتائج السحب الشهري لليانصيب الوطني .

(اكف عن عناقها ، وألهث بعنف) .

هي ـ اسمع . . . اقطع نفسك . . . اصغ .

انا ـ رباه ! ثلاثة ملايين فرنك !

الراديو ـ سيداتي ، سادتي ، نخاطبكم من التروكاديرو ، اوراقكم امامكم ، لقد ظهرت النتائج الاولى ، طفل كالملاك

يحمل بين انامله الغضة ، الرقم ٣٥٨٢ فئة ب ، هـذا الرقم يربح الملايين الثلاثة .

هي ـ (تضرب على رأسها) : قطع لسانك ، قطع لسانك . . . (تهدد بقبضتها صندوق الراديو) .

انا ـ يا للخسارة !

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . ربحت المليوني فرنك ، البطاقة حاملة الرقم ٧٠٠ فئة ب .

هي ـ (تقرع صدرها ، وتتجرع كأساً من الخمر تجرعها مرة واحدة) : اخرس يا غراب ، اخرس يا نذير الشؤم !

انا ـ ضاع الأمل .

هي ـ اسمع . . . اقطع انفاسك .

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . لقد ظهرت النتيجة الثالثة ، سيداتي ، سادتي ، ربحت نصف مليون فرنك ، البطاقة حاملة الرقم ٤٢٨٤ فئة آ .

هي ـ (تضرب رأسها صارخة) : ربحنا . . . ربحنا . . . ألا تسمع . . . أما سمعت ؟ نصف مليون فرنك ، ثروة . . . لا بأس . . . ثروة ، نصف مليون فرنك ، لماذا جمدت كالحطبة ؟

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . هاكم بقية النتائج . . .

انا ــ (مذعوراً مرتبكاً) : ماذا سمعت ؟ ٤٢٨٤ ؟ ربحنا . . . ربحنا . . .

(ترقص معاً على ايقاع صفيرها ، وتصرخ : ربحنا . . . ربحنا . . . نصف مليون) .

انا ــ رباه . . . ما هذه السعادة ؟ أأستحق يا سماء كل هذه النعمة ؟ سأفي بنذري ، سأذبح للفقراء .

هي ــ احمق . . . اي فقراء . . . اي نذر ، ألثمة في الكون افقر منك ، وهل لديك اقدس من نفسك . . . لتنذر له ؟

انا ــ (لا اسمع) : سأفي . . . نعم . . . سأذبح . . . سأتبرع لتسع جمعيات خيرية ، سأكسو تسعة عشر فقيراً ولدوا يوم ربحت ، تسعة . . . تسعة . . . ما معنى هذا الرقم ؟ ماذا اقول ؟ اين اذهب ؟ اين حذائي ؟ كيف اقبض ؟ اين نصف المليون ؟ سأذهب .

(ادور دورات مرتبكات في جو الغرفة المحموم وهي تركض للحاق بي) .

هي ــ سنشتري سيارة فخمة ، وداراً بحديقة . سنفرش الجدران بالمخمل ، ونغرس الارض بالرياحين . سنأكل ، سنشرب ، اشرب خذ ، سنسافر ، سنغامر ، اشرب . . . عجوز . . .

اشرب ايها المحسن الكريم ، (تشرب واشرب) .

هي – (متسعة الحدقتين) : ماذا ارى ؟ أتخونني ؟ سافل ... لقد كنت تخونني !

(تركلني فأقع على المقعد) .

هي – من حولي ؟ اخرجوا من هنا ، ارتفعي بي يا ارض ، وقربي خدك يا سماء . . . تعالي يا نجوم ! سأقتطفك يا نجمة المساء قبل ان تغربي واعلق قنديلك فوق باب بيتي لاحتفل الليلة بزفاف السعادة على الفقر المدقع ، ودخول الثروة على اليأس الفاجع ، (تمزق شفوفها عن نحرها) .

الراديو – ألو . . . ألو . . . سيداتي سادتي . . . ريثما نعلن النتائج الباقية ، نسمعكم مجموعة من الفالس الهنغاري يعزفها لكم اوركسترا لجنة اليانصيب الوطني .

(انغام موسيقى عالية) .

هي – موسيقى . . . موسيقى . . . ايضاً موسيقى . . .

انا – (ألهث اعياء) : ويحك يا نفس ! لماذا ترتجفين هكذا ؟ وماذا كنت تفعلين لو ربحت الثلاثة الملايين ؟

هي – موسيقى . . . موسيقى ، اخرس ، اخفض صوتك ، وادر مفتاح الراديو حتى آخره . . .

انا ـ رباه . . . اصابها الصرع ، ماذا افعل ؟ اين اذهب ؟ كيف اقبض ؟

هي ـ (تغدق على نحرها العاري ، الملتهب باسياخ النار ، ابريق الخمر) : اسبحا يا ثديّ في بركة النشوة والفرح ، فلطالما خنقتكما تحت الصدار ، لتذبلا كزهرتي جلنار !

ـ انا (اخبط رأسي بكفي) : ماذا جرى لي ؟

هي ـ اين المركبة النارية التي يجري بها جوادان جامحان نحو السماء السابعة ؟ الم يأت الحوذي الاسود ؟ لقد ابطأ الكلب ، سامزق صدره بالسوط .

(تضرب رأسها ، تنفش شعرها ، تدور على محورها كعمود من نار) .

انا ـ يا للفاجعة . . . جُنّت . . .

(ترتمي على الارض جاحظة العينين ، وغدا فمها تحت اذنها اليسرى حيث يسيل زبد ابيض) .

انا ـ ويلي ، ما هذه المصيبة ؟

(احتضن الجثة اللاهبة واطرحها على السرير واتهالك فوقها باكياً) .

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . انتبهوا (الموسيقى صادحة) .

الشيخ ـ (زاحفاً من الزاوية) : تباً لها من صريعة جموحها ، (يطرق حزيناً) :

الراديو ـ ألو . . . ألو . . . سمعتم قطعة من قطع الموسيقي الخالد رافيل . . . الو . . . سيداتي وسادتي . لقد سمعتم ارقام بطاقاتكم الرابحة . فادارة اليانصيب الوطني تهنئكم ، وتريد قبل ان تعلنكم النتائج الباقية ، ان تعتذر لكم عن سهو وقع اثناء اعلان الارقام الاولى .

الشيخ ـ انهض . . . اسمع !

انا ـ (انهض متقاعساً) : ماذا بعد ؟ لقد خسرت وانا رابح ؟

الراديو ـ ان البطاقة رابحة نصف المليون تحمل الرقم ٤٢٤٨ لا الرقم ٤٢٨٤ الذي اذعناه خطأ . سيداتي سادتي ، عفوكم ، ان الرقم رابح نصف المليون هو ، اعود فأكرر ، ٤٢٤٨ .

انا ـ ماذا اسمع ؟

(الشيخ يضحك كأنه يبكي) .

الراديو ـ صباح . . . تصفيق . . . جلب . . . موسيقى .

انا ـ ماذا سمعت ؟ أأنا مجنون ؟ أأنا اطرش ؟ ليست بطاقتنا الرابحة ؟

هو ــ هذه هي الحقيقة ، مُرّة . . . مُرّة . . .

انا ــ ما العمل . . . اقبل يديك . . .

هو ــ ما العمل ! أتسألني ؟ انك تتلف نفسك في دوار النشوة الكاذبة . وها هو زورقكما الخفيف يتحطم على جبل الثلج العائم في ابعاد المحيط .

انا ــ ماذا تقول ؟

هو ــ احمد الله على ان سعادتكما سراب .

انا ــ أتشمت ؟

هو ــ لا . ولكن لا احب السعادة عن سبيل سهلة . اني لا اؤمن بها .

انا ــ ونفسي ؟

هو ــ لتهلك هلاكاً .

انا ــ لا تكن ظالماً حقوداً ! انك لا تستطيع بقاءً بدونها .

هو ــ من يدري ؟

انا ــ سأوقظها .

هو ــ لماذا ؟

انا ــ سأقول لها انها خسرت . سأقول لها ان البطاقة لم تربح . عسى ان يشفيها هذا من دائها . عسى ان يطيب صرعها

بالـكي . عسى ان تعود الى صوابها . رحمة بها . لقـد خسرنا امانينا ، أونخسرها معاً ؟ اواه ما اثقل السعادة ! مسكينة نفسي .

هو ـ لا فائدة . لقد صعقتها صفعة النجاح ، أوتريـد ان تجهز عليها بضربة الخيبة ؟ هون عليك . . . وخفف عنها .

انا ـ انت كريم وعظيم .

هو ـ اوثق يديها الى جنبيها فلا تتحرك . وضع على الجبين المحموم هذه القطعة من الجليد .

(اجلس انا الى يمين السرير ويجلس هو الى اليسار) .

هو ـ سأسجنها طويلاً حتى تـبرأ . ان دواء الفوضى قليل من حديد السلاسل . ان اخشى ما اخشاه من الثورات ان تنتحر ، والا فلا خوف منها ولا عليها .

انا ـ لك ما تريد . اغفر لها .

هو ـ احجب عنها الخمرة يا ولدي والاماني ، فلم ار مثلها جناحين يحملان صاحبها بعيداً عن الارض ، ولم اجـد مثلها دليلا نحو الهوة .

انا ـ (بدهشة) : اراها تتحرك .

هو ـ لقد بدأت تنتعش بانتظام .

انا ـ شكراً لك .

هو ـ لا تشكر اليوم وتكفر غداً ، لا تشكر ، فهو الوثاق في يديها والجليد على جبينها .

(ينهض متثاقلاً تعباً) .

(اضم نفسي الى صدري ، واضطجع الى جانبها على السرير ، واجهش طويلا) .

(ثم انني من خلال الدموع ، رأيتني وحيداً ، بين سحب الدخان الكثيف ورائحة الخمرة المهدورة على الارض) .

جموح القطيع

١

كان مستلقياً على ظهره يحدق في رقّاص الساعة بذهول وتأمل عميقين ، كأنه على موعد يحصي له الزمن بالثواني . وقد بدا منذ بضع دقائق وكأنه لا يرى حركة الرقاص ، ولا يسمع نقر ثواني الزمن ، ولا يتأمل ، ولا تجول في خاطره فكرة . . .

كان حسني بك ساهماً لا حركة تنم عن يقظة وعيه ، جفناه جامدان مصلتان ، وانسان عينه ساكن غائم ، كأنه احد ابطال خرافات تروي ان ابطالها ينامون مفتوحي العيون وسيوفهم على جنبهم . ولعل عينيه العالقتين بالرقاص ، وكان الشيء الوحيد الذي يتحرك في غرفته عندما بدأت تدهمها عتمة الغروب ، كانتا تتلمسان غرضاً في النفس مبهم الحالات ، ثم حالت دونها غلالة من النسيان العميق ، فلبثتا تحدقان بقوة الاستمرار .

وعندما نقر باب غرفته ثلاث دقات خفيفات انتفض من

سريره مذعوراً ، وكاد يتوجه نحو مائدة في درجها مسدس اسود ، لو لم يسمع صوت خادمه يكلمه من وراء الباب قائلًا : « ان سيدتي تذكرك بموعد الليلة ! » فذكره هذا الصوت الذليل الحذر بجماقة كبرى ارتكبها وهو ينتفض من ضجعته : « لماذا خفت ان يغتالني مجهول وانا في عقر داري ؟ » ثم زالت الفكرة من خاطره بلا عناء ، وتذكر الموعد الذي ينتظره ، فأدرك ان عليه ان يغادر الدار بعد اربعين دقيقة على الاكثر . ولعله فطن الآن كيف تمدد على فراشه منذ ساعتين ، وهو يحدق في الساعة المعلقة في الجدار ، وقد احرجته افكار غريبة لا عهد له بها من قبل .

كان وجه حسني بك مخنوقاً كأن عليه آثار يد شبحية ثقيلة ، متسع الحدقتين ، نافر الصدغين ، مبللًا بعرقه البارد ، كمن به حمى او صداع مؤلم ، فهرع الى النافذة يزيح ستائرها الكثيفة التي كانت تحجب الشمس ، وتطلع الى الافق الذي خضبته حمرة المغيب ، فمسح جبينه بمنديل وتمطى حتى اتسعت رئتاه للهواء ، ولبث ينظر طويلًا الى منحدر السماء على الرابية المغبرة .

ثمة سؤال يحرجه ، كان قد طرحه على نفسه منذ عام حين

هجر المدينة وضوضاءها ، وانتقل الى ضاحيتها فاستأجر هذا البيت المنعزل في احضان البساتين هرباً من مجهول يلاحقه فلا يدرك كنهه ولا يميز هويته . ولطالما حاول ان يضع حداً للصيغة النهائية التي يجابه بها السؤال الملح . ومنذ يومين ، بل منذ ساعتين ، اصبح الفرار من الجواب مستحيلاً ، فان محكمة عليا تشكلت في ضميره ، اصبحت تدعوه وتلحف وتزعج ، فاما ان يجيب بلا او بنعم ، فالقضية في حياته او في موته .

. . . كانت الشمس قد سحبت آخر اشعتها التي لونت بها الافق بالحمرة الكئيبة الداكنة ، وتداخلت اوائل الظلام بأواخر النهار الهارب ، فانتصبت اشجار الحور اشباح مردة سوداء على طول الافق ، وتعالى جرس نقيق الضفادع في جو كله رهبة وسكون . ثم تراكب الظلام واختلطت الاشباح ، فحط بوم على غصن شجرة قرب الدار ، وراح يطلق من حنجرته صيحاته الرنانة بين فترات منتظمة تذكر بدقات ساعة الجدار . ثم طلع نجم مشع ، وهبت في جوف الليل المحموم نسمة فاترة ما لبث ان ابتلعها غول الظلام . . .

— نعم . . . ام لا ؟ . . أأذهب ام لا اذهب ؟ . . تباً لك يا حسني من رجل شقي ! . . لقد حلقت بعيداً بأثقالك

وقيودك كالنسر يقتلع شباكه ، واوفر حظاً منك هـذا البوم الذي يعيش في زوايا المقابر وبين نخاريب الاطلال ، والآن قل لنفسك : نعم . . . ام لا ؟

قال هذا ، ورجـع عن النافذة ليفتح البـاب حيث اعلن الخادم من ورائه بصوته الذليل المعتاد ان لسيده بطاقة وصلت الآن ، فأخذ البطاقة وقرأ : « الجميع بانتظارك . . . الشعب في هياج . . . عليك ان تلقي الكلمة التي قررها الحزب . . . »

فغمغم حسني بك وقد استهتر فمه بابتسامة كئيبة : الشعب في هياج . . . الشعب في هياج . . . ومتى لم يكن في هياج هذا الحيوان الخرافي الاحمق المفقوء العينين ؟ وطفق يلبس ثيابه .

الياقة ضيقة ، والحذاء ضيق ، والصدار ضيق ، وكل شيء يضيق على حياتي منذ اضعه على جسمي ! يا الله . . . ألهمني نعمة الصبر . أعليّ ان اخرج الى الناس مثقلاً بالقيود كلما ارادوا ان اكلمهم عن الحرية ؟

وصرخ حسني بك بالخادم ، فدخل عليه وقـد قوس ظهره واصفرت سحنته ، وتخاذلت ركبتـاه وهو يتمتم : امرك سيدي . . . هل ناديتني سيدي ؟

قـال حسني بك : هات الحـذاء الآخر ، وهات ياقة غير

هذه . . . وأعطني غير هذه البزة . . . قل لسيدتك تعطيني ثياباً اعرف كيف ألبسها ، وأمشي بها وأتحرك . فخرج الخادم ورجع حاملاً ثياب سيده وهو يقول : سيدتي ترى ان ثياب سيدي هذه للسفر ، وليست للايام الرسمية .

فحملق حسني بك في خادمه العجوز ، وقد سمع كلمة « سفر » فلم يتمالك واغرب في الضحك ثم قال : قل لسيدتك انني مسافر الى جهنم . . .

فانسحب الخادم مشياً الى الوراء وهو يقول : امرك سيدي . . .

جلس حسني بك وراء مكتبه وصمم دون كثير من التفكير ان يضع صيغة الخطاب الذي يجب ان يلقيه هذه الليلة في نادي حزب « التعاون الشعبي » ويذيعه على الناس . فحرك جبينه وطرد من وهمه فكرة « السفر » لمجرد انه يلبس ثياب السفر . ولكي يقطع الدرب على افكاره المشوشة المضطربة التي خلقتها من جديد كلمة « سفر » راح يكتب على الورق امامه العنوان الذي تعود ان يضع تحته صيغة خطبه السياسية :

ايها الشعب النبيل !

ثم انطلق يكتب بيد مرتجفة مضطربة : « . . . في هذه

الليلة السعيدة التي تلتف فيها حول رجالك الاحرار ، فتطوقهم بثقتك الغالية وتمنحهم القوة التي يرفعون رايتها ويحملون علم مجدها ، اقف باسم هؤلاء الاحرار الذين امثلهم ويمثلونك لألقي على رؤوس الاشهاد كلمة حق ونور يسجلها التاريخ ويخلدها صدر الزمن . . . وتهتز لها الاجيال ذرية بعد ذرية . . . ألا وهي الكلمة التي تصدر منك وعنك ، وهي اليك ، وعليك . . . وفيك ! »

كتب هذا واذا به ينفجر بضحكة مقهقهة ، اتصلت بنوبة سعال حادة ، فسحق لفافته في صحن ، وامسك بالقلم وكان لا يزال يضحك وشطب كلمة « عنك . . . وفيك » من الخطاب ، ثم استأنف الكتابة قائلاً : لعنة الله على الفقاقيع .

« ايها السادة : نحن نعلم انكم لستم بحاجة الى كثرة الكلام ، فليس ادل على ثقتكم بنا من اجتماعكم هذا ، وليس ادل على ثقتنا بقضية الوطن الكبرى من عملنا وجهادنا المتواصلين ، فمن اولى ثقته احرار امته لا يتراجع ، ومن يقطع عهداً لا يخون العهد . . . وحق السماء لن نخون العهد ، فنحن قوم آلينا على انفسنا ان نموت احراراً كما عشنا ، فدون اذية الوطن رقابنا ودماؤنا . . . ودون كرامتكم ارواحنا واغلى ما تملك ايدينا

وما يمكن ان تملك . »

عندما وصل حسني بك الى هذا الحد ، كان العرق يتصبب من جبينه ، والعياء يهد كتفيه ، فكان يكتب الكلمة الواحدة اربع مرات ويستبدلها بسواها ثماني مرات ، حتى اذا اعياه الجهد صرخ في نفسه : « والآن ايها الدجال ! قل الكلمة . . . ما هي الكلمة ! . . انطقها واطلع بها على هذا الشعب النبيل ! . . يا لك من صيرفي سمسار ، رأس مالك الرياء والنفاقيع الجوفاء ! . . »

وطرق الباب فاذا بالخادم يرجو سيده الخروج لمقابلة جماعة يطلبونه بالحاح ، وكان حسني بك لا يزال يصيح فأردف باللهجة نفسها : « ويل لك ايها الابله . . . قل للجماعة انني لست هنا ، قل لهم انني لا اريد ان اخرج ، قل لهم انني خرجت منذ ربع ساعة ! قل سافرت . . . أترى يا احمق انني موجود هنا ؟ . . »

ثم جلس وراء مكتبه ثانية وقد عدل عن انجاز خطابه فراح يكتب بسرعة :

« ايها الشعب المغفل !

« أتعلم ما هي الكلمة التي اقولها ؟ هي الكلمة التي لن تسمعها لانها غير موجودة الا في سجل الرياء الذي كتبته معك

منذ ثلاثين عاماً ، اضع فيه ما لا تدرك ، وتدرك منه ما لا اضع .

« كل الليالي التي ألقاك بها ايها المجموع البشري الثقيل هي ليال مشؤومة . فكلما جن جنونك ، هتفت باسمي ، لأنتصب في حشدك كمحكوم عليه بالاعدام ، وكنت استولي على جنونك بقليل من الرياء واعود ساخراً منك ومن نفسي . . .

« ثلاثون عاماً درجت بها معي من معلم بسيط في قرية صغيرة الى مدينة كبرى وزعامة خطيرة ، ولم أرك يوماً تحب الصدق ، ولم اصدقك في كلمة من الكلمات ! . .

« انت خرافة ، وانا خرافة مثلك ، تزملنا بثوب واحد ، نسجناه من اضاليل السياسة واوهامها ، واسلوبها العذب ، وانشائها الداوي الرنان ! فكنت تتعزى ان يكون زمام حياتي بيدك ، وكنت اتعزى ان يكون زمام امرك بيدي ، ولم اكن الا لاخادع نفسي فيك ، وتخادع نفسك فيّ ، ولم اكن الا لاستعبدك وتستعبدني ، كأننا على اتفاق منذ عاهدتني وعاهدتك على الدفاع عن هذا الوطن الشقي بك وبي ، ان تبادلني العبودية بالدرهم فأبادلك مثلها بالقنطار .

« ايها الشعب الجاهل ، يا من تشوقك كلمة وتسوقك اخرى ،

كحقل من القنب ، في دوار عاصفة ذات اربع رياح ! كنت أود ان اقول لك الحقائق عارية حرة ، مزقت عن جسمها برود البطولة المزخرفة ، وطيالس الابهة المتعجرفة ، ولكنك خلقت لتعمى عن الحقائق . وان لوجهك الخرافي الف عين لا تبصر الا بواحدة منها وهي المثقوبة من فوق في يافوخك ! . . ألا اعفُ عن جرائمي التي ارتكبتها على كتفيك فقد ارتكبت انت من الجرائم على كتفيّ ما ناءت به حياتي . فأنا في حل من دينونتك ، اطلق حياتي من خرافاتك ، فها انا احرر حياتك من وهم زعامتي وبطولتي . »

عندما انتهى حسني بك من تسجيل كلماته على هذا الشكل ، قام ثانية نحو النافذة ، فأطفأ النور وأطل على الظلام الكثيف فخيل اليه ان عصفوراً افلت من غرفته ، من صدره ، وقد دف بجناحيه الخفيفين وتوارى في ايك الحور والصفصاف كنجمة ذات جناح . فارتاحت نفسه وتنفس ملء رئتيه ! . . انه حر . . . حر ! . .

٢

ولكن الشعب ينتظر حسني بك كما تعود ان ينتظره دائماً . انها آمالٌ جسيمة تلك التي تتجسد للشعب في شخص حسني بك ،

وان رؤيته على شرفة هذا القصر الابيض يطل على الحشد البشري الكبير لجديرة بان تحقق نصف هذه الآمال . والكلمة التي سيلقيها تحقق النصف الآخر .

ان مخيلة الشعب قد هضمت حسني بك منذ الزمن القديم فأصبح شطراً لا ينفصل من كل ما يجول في خاطره ويتحرك في رجائه وضميره .

وعبثاً حاول اعضاء حزب « التعاون الشعبي » تهدئة الخواطر والتلويح بالكلام المهفهف الرنان من على شرفة القصر الابيض ، فالشعب لا يفتأ يصرخ : حسني بك . . . حسني بك . . .

الجماهير تتقاطر جماعات ومواكب الى ساحة الميدان الكبرى ، حيث تطل عمارة القصر الابيض بشكل تاج ، وكان كلما ظهر على الشرفة خطيب من رجال حزب « التعاون الشعبي » تزحف الجماهير متزاحمة الى الامام موجة واحدة كأن الخطيب قطعة حديد ممغنطة ، فيقول بضع كلمات لا يسمعها الا عشرة من الف ، والباقون يصمهم الصراخ ، واخرون يهتفون وراء الهاتفين دون ان يعلموا لماذا يهتفون . ففي مثل هذا الدوار العاصفي الزاخر بعواطف الشعب كان اسم حسني بك معلقاً منذ عشرين عاماً كطبل كبير في شجرة تطوح بها الرياح .

على الميدان الكبير ، كانت شمس الصيف تصب ناراً ، لا تلبث الارض ان تردها الى الجو لهاثاً خانقاً يختلط برائحة الرجال المطبوخين بعرق اجسام مبشومة بالحماسة والقلق . وكانت ألوف الوجوه النحاسية اللامعة تتجه دائماً بعيون مشدوهة نحو غرفة واحدة في القصر الابيض سيطل منها حسني بك كالنور الهادي . . .

حسني بك لم يظهر على الشرفة . ولكن رجلاً هزيلاً اصلع الجمجمة كان يخرج الى الشرفة بين الفينة والفينة ليقول بضع كلمات تردد الجماعات صداها تصفيقاً في هذا الجناح ، وهتافاً في ذاك ، ويمر وقت فيتلقفها الجمهور فماً عن فم ، ثم ينفجر بهتاف واحد بعد خمس دقائق بعدما يتلمظ بها وعيه السكران .

لقد تواكبت الجماهير وازدحمت قطعانها وتداخلت مواكبها فشكلت مساحة واحدة من الرؤوس البشرية المخنوقة الاكتاف ، تترنح ذات اليمين وذات الشمال كأنها موجة لها نواميسها السرية في المد والجزر . وقد تخفت الضوضاء آناً لتعود اشد واقوى . ويخيل ان لسحق الصدور على الصدور صوتاً يزهق الروح .

هي ساعة الغروب وحسني بك لم يصل بعد ! وعندما راحت الشمس تسحب اواخر اشعتها عن الميدان الفسيح وقد ارتفع

عليها غمام مستطير من الغبار الخانق الثقيل ، كان الاضطراب قد بلغ حده في هذه الموجة البشرية التي لم تعد تقوى على حصر غليانها الداخلي ، فاندفقت الى الشوارع المجاورة على جوانب الميدان الاربعة ، وترامت عليها من شتى الجهات جماعات اخرى كانت تضيف نفسها الى اطراف تلك الموجة المتداحة المتسعة ، المكتسحة دائماً . وبعد قليل استنارت غرفة القصر الابيض وبدت للجماهير اشباح الرجال من اعضاء حزب « التعاون الشعبي » يروحون ويغدون في النور وبهم سبب من اسباب هذه الجماهير التي تنتظرهم ، بينما سادت العتمة ارجاء الميدان ، فتشرد الابصار نحو النور وتعلق فيه فلا ترى شبح حسني بك .

وكأن اقتراب الليل ضخم في الشعب شعور الخطر شأنه في جميع الغرائز ، سُمع للضوضاء هدير يشبه مقدمات انفلات التيار . لذلك عندما خرج الرجل الهزيل الاصلع الجحمة من غرفة القصر الابيض وقد احتواه النور كضفدعة تسبح في ضوء القمر وراح يحرك يديه صعوداً ونزولا ويرفع رأسه رفعة الاباء ويحنيه حنية الاستجداء ، او يمشي خطوة الى الامام واخرى الى الوراء ، وتتشنج حركات شدقيه وتتضاعف اختلاجات يديه وقدميه ، لم يكن احد يشعر بانه يخطب ولم يكن احد يميز بين كلامه

وانفعالات جسمه الخافق تحت الضوء. فقد خنقت الضوضاء صوت الخطيب وظلت الموجة البشرية آخذة بالتصاعد حتى جرفت غرفة القصر الابيض وجرتها الى الخضم المتواثب كقشرة بيض. وانبثقت فجأة مصابيح النور في اطراف الميدان، ولكن الضوء لم يزد تلك الجماعات الا ظلاماً. فقد استطالت الاشباح وارتمى بعضها على بعض. وعاد الغبار يهوم في مجاري الضوء وقد حمل معه هذه المرة جحافل البعوض المتقاتل في دوار لولبي حول المصابيح الغائمة، وقد حاول الرجل الهزيل الاصلع الجمجمة عبثاً، توجيه صوته نحو هذا الحشد الاصم المتعامي بحركات يديه وشدقيه فكانت الاصوات تتعالى لتخنق صوته داوية دائماً: حسني بك... حسني بك...

وفجأة مشى تيار في قلب الموجة وشوهد بضعة افراد يركضون فما لبثوا أن استثاروا فضول الواقفين المذهولين فراحوا يركضون وراءهم، وسرعان ما تكسرت الدوائر والصفوف، واتجه الكثيرون نحو الحركة المتسارعة التي ما لبثت ان وقفت فجأة واشرأبت الاعناق نحو اقصى الميدان حيث طلع رجل على الاكتاف وصاح بصوت عنّت له الضوضاء واستكان اللجب: أتعرفون اين حسني بك؟

وما كادت الاسماع والالسنة تتناقل السؤال وتتطارحه وقد خيل للقطيع ان من يطرح مثل هذا السؤال هو زعيم اكبر من حسني بك، حتى وثب آخر في صف مقابل وصرخ : هذا الرجل الذي يطأ مصلحة الامة ! فتلاه الصارخ الاول وقد ماج حشد الشعب بعضه على بعض ، بصوت اجش مستطيل : حسني بك الرجل الخائن . اقتلوه. . . ثم تعالت اصوات مترددة هنا وهناك، كأنها آخر الشك او اول اليقين : ليسقط حسني بك ! . . وعندما عادت الشرذمة الى الركض ، مخترقة الصفوف ، ساد الاختلاط واندفع الراكضون بالواقفين كجماعة النمل ادركتها النار وراحت تفتش عن مخرج . وبعد ريث كان الميدان الكبير قطعة واحدة تنساق في اتجاه واحد كغيمة دكناء تسوقها عاصفة هوجاء .

الى اين ؟ اي مجهول يستر دفة هذا الزحف الاهوج ؟

الى دار حسني بك الخائن !

لماذا ؟ لانه عدو الامة ! لانه وطىء مصلحة الشعب وخان البلاد .

وكان القطيع بلا عنان يسير في ضاحية المدينة بين الاشجار ، دليله صوت يخرج بين الفترة والاخرى : الى بيت الخائن . . .

احرقوه ! وكان كلما اقترب من مقر الخائن ايقن كل اليقين بخيانته .

ـ لماذا خان ؟ . .

ـ لا أدري . . .

ـ اذاً هو خائن ! . .

ـ ليسقط الخونة !

حسني بك الذي عاش ربع قرن في وعي الشعب النبيل ، مات في بعض ساعة . وفي حالة ارتجاج تقيأ الحيوان الخرافي كل ما هضمه منذ اعوام .

ان العواعق لا تعد البيوت التي هدمتها ، والتيار يبدأ باغراق الخزان الذي احتضنه .

كان حسني بك يعلم اكثر من اي رجل آخر ان الجماهير خائنة كالرمال ، ولقد مشى فيها ثلاثين عاماً حتى وصل الى الواحة الخضراء التي طالما فتش عنها ضميره المتعب وجلده المضنى .

وعندما عرج نحو العزلة كان يود ان يتجنب المصير ولكنه لم يتجنبه . وعندما هاجمت الغارة بيته في الضاحية فلوثته بالسواد ، وحطمت ابوابه ونوافذه ، ورمت اثاثه ، وكسرت اوانيه ،

واحرقت اوراقه وكتبه ، كان حسني بك في القرية البعيدة التي اختارها ، كالسنونو تهجر اعشاشها بغريزة تتوقع عواصف الخريف .

وفي اليوم الثالث بعد الغارة الشعبية كانت البلاد تتحدث عن الخيانه الكبرى ـ اي خيانة ! ـ وكان حسني بك في القرية النائية التي نزح اليها يطالع صحف المدينة وقد اجلس طفله على فخذه وراح يقرأ هذا المقطع بصوت عال : « ولعل المهاجمين لم يدركوا حسني بك الذي هرب . فوجدت جثة خادمه معلقة على شجرة صفصاف وقد كتبوا على قميصه الابيض : حسني الخائن ! هذا جزاء الخيانة ! »

فقفز الولد من حضن ابيه وهو يضحك ويردد : حسني الخائن ! حسني الخائن ! ويصفق ويرقص ، وراح الوالد يحدج ولده بنظرات ذاهلة كلها ارتياح وطمأنينة وقد سمع الآن ، بكل وعيه الهادىء ، كلمة « خائن » يرددها ذاك الشعب . . . وهذا الطفل .

ميلاد البؤس

اسطورة

خلق الله البؤس ، عشية خلق السعادة .

ان له في ذلك حكمة لا تنتقص ، وحجة عقم فيها الجدل ، وعيت في امرها الحجج .

وكما سل حواء ضلعاً من جنب آدم ، كذا سل البؤس ضلعاً من جنب السعادة . . .

شيء في الكون يجب ان يكون . وفي البدء ، خلق السعادة :

. . . عندما اتم البارىء صنع « السعادة » ، وفرغت ريشته من النقطة الاخيرة ، في الخط الاخير ، تراجع الى الوراء ، تعباً مذهولا ، وفي عينيه ولهٌ ، وثقل ، كأنه ما عرف الضنى ، في كل صوره ولوحاته ، بمثل ما عرفه في هذه اللوحة الرائعة ، وراح يتأمل في لوحته : انها عذراء فاتنة ، تنفس فيها الجمال

وشاع ، كما يشيع الصباح في غلالة الشفق المورد .

وقبل ان ينفخ الله من روحه ، في الصورة الصامتة ، كان كمن يعلم انه ينفح الكون بهبة هي الجمال بعينه ، والقبح بعينه ، هي الخير كل الخير ، والشر كل الشر . فلا النور عندما تصبح الاكوان ، ولا الظلام عندما تمسي . بل النور والظلام معاً عندما تنتشر هذه الروح تحت الشمس .

اما كيف سبقه هذا الانبثاق ، فذلك هو المجهول ، وذلك هو السديم في فكرة الابداع . ثم نفخ الخالق ، تعالى ، في الصورة الجديدة ، وما اطال التفكير ، وستر وجهه بكفيه ، واشاح بوجهه .

كان ذلك صباحاً . . .

في برجه « تعالى » كان عليه ان يستريح ولما يدرك يوم الخليقة الاخير . . . وكان في عزلته الرهيبة يشعر كأنه ما خلق حتى الساعة خليقة تذكر .

ان الخالق يرزح تحت عبء همومه .

فود لو لم يبدع كوناً ويخلق روحاً .

أولم تكن السعادة غاية الابداع ؟ . .

فلم لا يرتاح تعالى الى غاية الغايات ؟

ولم ترتعش انامله ، ارتعاشة الشفتين ، ترتجفان بالكلام ، والقلب يثقل بالانغام ؟

وما هذا السديم العائم الذي لا تزال تهيم في احشائه ، فكرة مجهولة ؟

دخلت « السعادة » عليه مفاجئة ، وهل تستأذن السعادة ؟ وتلك هي المرة الاولى التي تضع بها السعادة قدميها ، ذات لون الورد ، على صعيد الكون . فتسربت الى برج سيدها ، كما تتسلل خيوط الشمس . واستوت امامه ، تشهد بخفر ودلال ، انها اروع ما ابدع .

فاشرق البارىء واستبشر ، وكان وشيكاً ان يقطب . . . ويزجر .

وكانت السعادة ترفل بشفوف من انعم الاحلام ، وتبتسم عن ابرد براعم الآمال ، تتثنى كغصن سكر من زقزقة العصافير ، او كساقية رقدت محمولة على اكف الرياحين .

فمالت على الاله المرحب بها ، الباش لها ، واستوت في

احضانه ، خفيفة رشيقة . ولكن ما اتسع لها من ذراعيه ، لم يكن يتسع من نفسه المضطربة الدائمة القلق .

في عشية هذا الخلق العظيم ، كانت السعادة تتوجع من الجنب الايسر . فقد مازجت الصفرة الباهتة تورد الوجنتين ، ونفر عرقان ازرقان في منفسح الصدغين الشفافين ، وكحل ما تحت الجفنين اثمد حزين .

واما الفم فقد احاط به قوسا خطين ، كسيفين مصلتين ، فوق كل ابتسامة ، فلا تخرج الا مدماة ، ولا تتطاير الا مهيضة ، ولا ترقص الا صريعة .

وسرعان ما ادرك البارىء سر الوجع .

وتلمس جنب العذراء ، حيث الالم ، فاحست انامله ضلعاً نابياً .

ولم تكن ارادة المبدع ان تتوجع « السعادة » . بل هي ارادة الابداع . شيء في الكون يجب ان يكون .

فانتزع الاله الضلع النابي ، ولاول مرة تشعر السعادة بالهناء الكبير ، والفراغ الكبير معاً .

قالت السعادة : ماذا انت فاعل بضلعي ؟

اجاب الخالق : سأحيله رماداً ، واذريه في رياح الهاوية !

فصاحت العذراء متأوهة : ما نويت ذلك ! . . اتفعل ؟ بل اصنع لي منه شيئاً .

قال : شيئاً كأي شيء ؟

قالت : شيء كعصا اتوكأ عليها ، او كصولجان اتزين به .

ونفخ الاله في العضو المخلوع من الجنب الموجع ، وقد ادرك الآن نهاية خلقه ، فاذا به يتم حلقة الختام .

وجه دميم ، على جسم صغير نحيل ، عينان غائرتان في جبين عال عريض ، فم صغير بشفتين رقيقتين مطبقتين ، فكأن المخلوق الجديد يكظم وجعاً ازلياً .

قال الخالق بعد تردد ، وقد جرت في قلبه الشفقة ، بقدر ما سرت في حواسه قشعريرة الهول : مقدسة هي ارادة الابداع . لقد انكشف السديم ، وانزاحت حجب المجهول ، واسفر الانبثاق الكبير . فلنسمه « الذكاء » .

قالت السعادة بدلال ام مرضع : بل لنسمه « البؤس » .

وهكذا كان .

وعندما تحرك « البؤس » والقى على الكائنات نظراته الاولى شعرت « السعادة » ان رونقها قد امسى بدراً .

وخرجا الى العالم معاً ، وكانا من قبل حظيرة بهائم ، وراحا يهيمان .

ثمة ملتقى واحد ، كان يلتقي عنده هذان المخلوقان المتناقضان مهما طوحت بهما الاسفار وفرقت بينهما الاحوال ، هو تذكرهما وحنينهما :

تذكره انه كان نجماً . . .

وحنينه الى الجنب الذي هوى منه .

وتذكرها انها كانت مخلوقة كاملة . . .

وحنينها الى العضو المفقود ابداً .

وكثيراً ما كان الاله يطل ليشاهد مصير مخلوقاته ، فيشاهد البؤس والسعادة يسيران متخاصرين متلاصقين ، هي تتكىء عليه وهو يضع رأسه على جنبها .

فهرست

	صفحة
كلمة المؤلف	٥
الشرق شرق	١١
احلام بولاند	٣١
ربيع يتضوَّر	٤٦
قبل المدفع	٦٠
العانس	٧٤
ملاك الموت	٨٧
جنازة الآلة	١٠٧
تاريخ جرح	١٢٢
المعركة	١٤٠
جموح القطيع	١٦١
ميلاد البؤس	١٧٧

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطبعة الاتحاد ، بيروت
في ١٥ حزيران ١٩٤٤

892.73:Sh524t
الشايب، فؤاد
تاريخ جرح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030160

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.78
Sh544tA
c.1